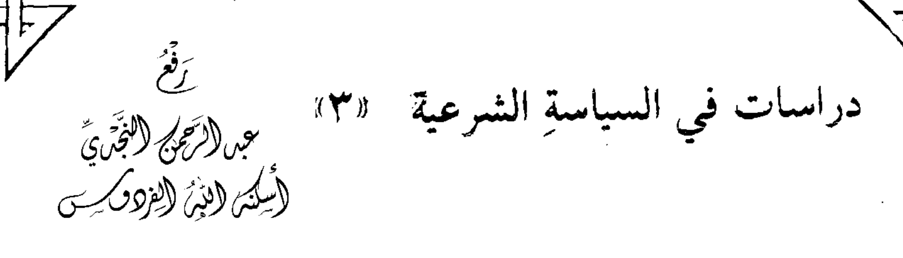
دراسات في السياسة الشرعية
"٣"

فقه الواقع بين النظرية والتطبيق

طبعة جديدة، منقحة ومزيدة

كتبه

علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد
الحلبي الأثري



دراسات في السياسةِ الشرعية «٣»

فقه الواقع
بين
النظرية والتطبيق

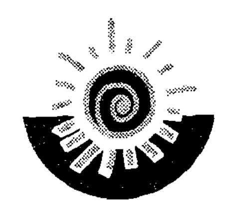
طبعةٌ جديدة، منقَّحةٌ ومَزيدة

كتبه

علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد

الحلبي الأثري



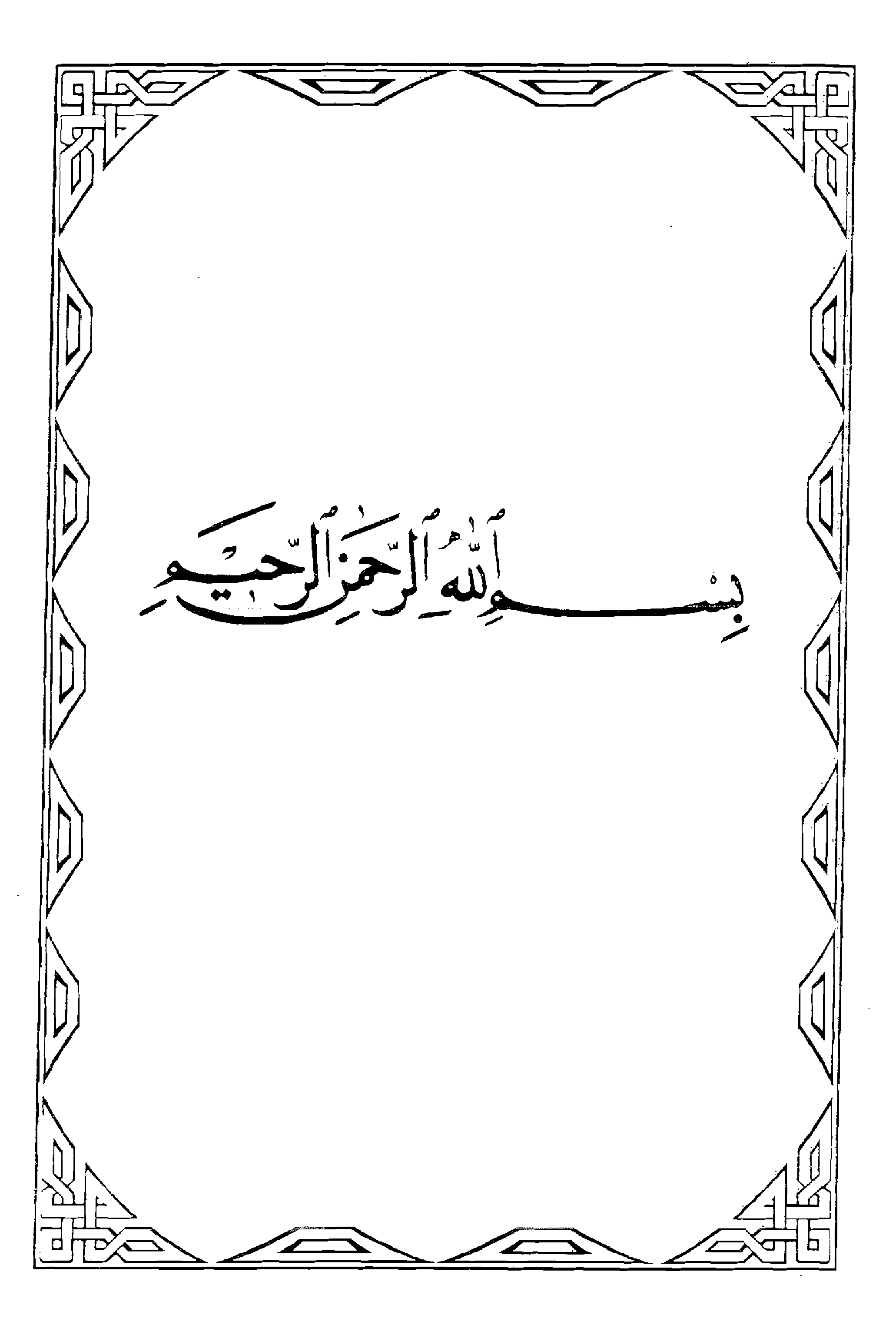


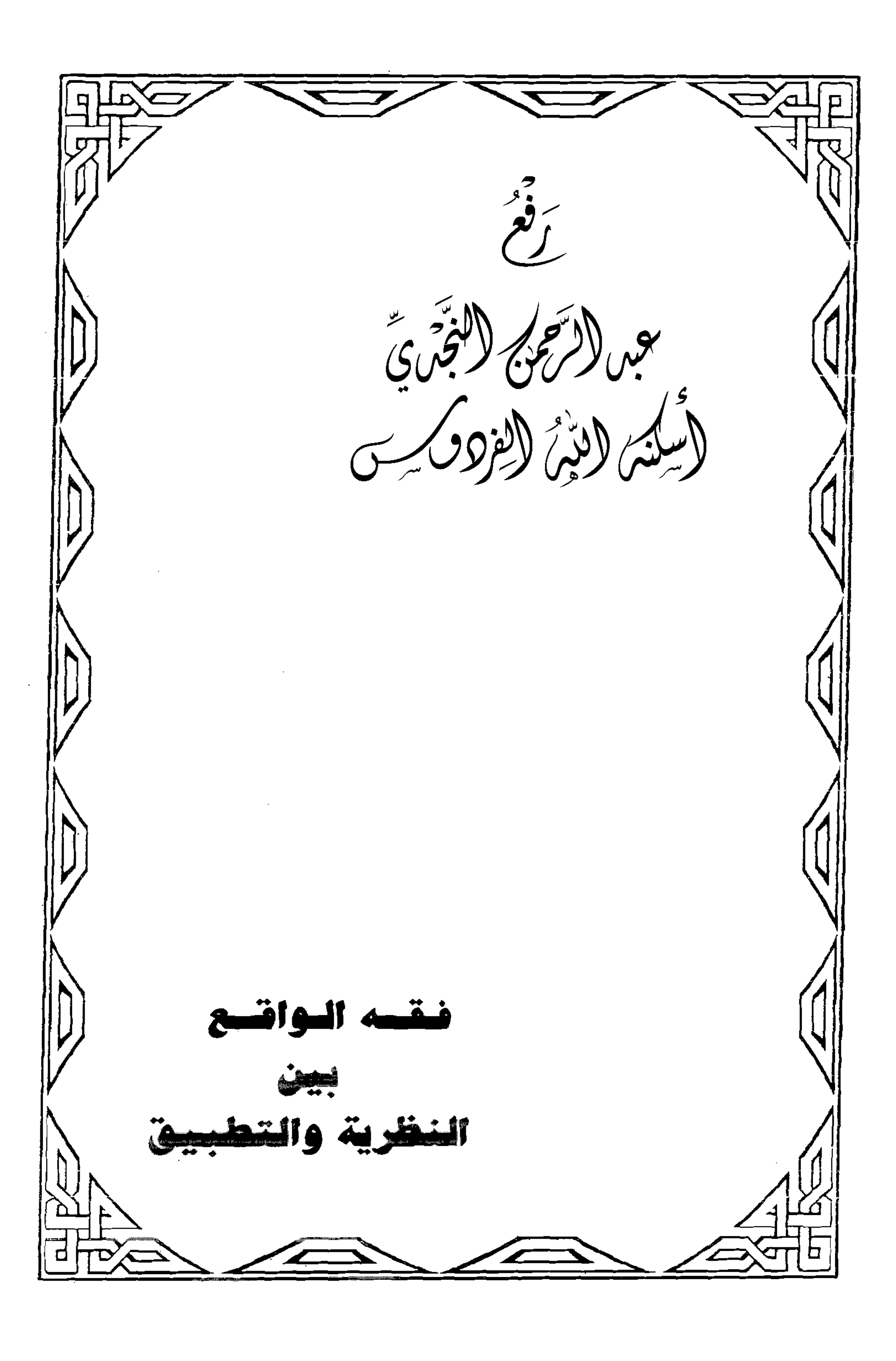
لشركة النور
للطباعة والنشر والتوزيع

فلسطين - رام الله - بير نبالا - دخلة عرابي - تلفاكس 02-2441207
E-mail : alnour-com@jrol.com

الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ

الطبعة الثالثة: ١٤٢٠هـ


بسم الله الرحمن الرحيم



فقه الواقع
بين
النظرية والتطبيق

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله حقَّ حمدِه، والصلاة والسلامُ على نبيِّه وعبدِه، وعلى آلهِ وصحبهِ ووفدِه؛ أما بعد:

فهذه هي الطبعةُ الثالثةُ من رسالتي «فِقْهُ الواقع بين النظريّة والتطبيق»؛ وهي رسالة مؤصَّلَةٌ- إن شاءَ الله- على نهجِ عُلَماء السنة، وسبيلِ صفوةِ الأئمّة[١].

وها أنا ذا أراجعُها، وأنظر فيها، وأتأمَّلها بعد نحو عشر سنواتٍ من تأليفها: فلم أَرَ فيها إلا ما يزيدُني ثباتاً عليها -بحمد الله وتوفيقهِ-.

ولا بدَّ- هنا- من تنبيهَيْنِ:

الأوّل: أنَّ بعض النقول العلميّة التي نَقَلْتُها عن بعض المنحرفين في المنهج، أو المغموز بهم في العقيدة: إنّما نقلتُها لأحد سَبَبَيْنِ -أو لَهُما مَعاً-:

---

(١) كمثلِ رسالة «سؤال وجواب حول فقه الواقع» لشيخنا الكبير أبي عبد الرحمٰن محمد ناصر الدين الألباني- رحمه الله-، وقد قُمْتُ عليها -بفضل الله- تقديماً ونشراً.

أ- إقامة الحجّة على مُعظِّمي هؤلاء؛ بما يكشف عن حقيقةِ مخالفتهم حتى لمُعَظِّمِيهم!!

ب- كَشْفُ تناقُضِ هؤلاء[1]- المنقول عنهم- حتَّى مع أنفسهم؛ بما خالفوا- فيه- كتابَ ربِّهم، وسُنّةَ نبيِّهم ﷺ.

أمّا التنبيهُ الثاني: فهو أنَّ بعض الغَيُورين- من الحريصين على العقيدة والمنهج- قام بنشرِ هذا الكتاب نشرةً وقفيّةً -تصرَّف فيها زيادةً واختصاراً- تحت عنوان «مهذّب فقه الواقع»؛ لم أطَّلع عليه إلاّ مطبوعاً!

(١) ومِن أبرزِ (هؤلاء) (الكاتب الأديبُ) سيد قُطب- غفر الله له-؛ فإنّه كان كثيرَ المخالفةِ للشرع- لعدم تخصُّصِهِ، وقِلَّة فقهه-؛ وقد ردّ عليه فضيلةُ الأُستاذ الشيخ ربيع من هادي- نفع الله به- في عدّةِ كتب مُستقّلةٍ؛ منها كتابُ «العواصم ممّا في كتب سيّد قطب من القواصم»؛ أبَان فيه -عليه- كثيراً من المآخذ العلمية- بعامة-، والعقائدية- بخاصّة-.

ولقد نقلتُ من خَطِّ أستاذنا الوالد الإمام الشيخ محمد ناصر الدين الألباني -رحمةُ الله عليه -في آخر صفحةٍ من صفحات الكِتاب المذكور- قولَه: (كلّ ما رَدَدْتَه على سيّد قطب حقٌّ وصواب؛ ومنه يتبينّ لكل قارىء مسلم على شيء من الثقافة الإسلامية: أن سيد قطب لم يكن على معرفة بالإسلام- بأصولهِ وفروعه-؛ فجزاك الله خيراً أيها الأخ الربيع على قيامك بواجب البيان، والكشف عن جهله، وانحرافه عن الإسلام. ناصر).

وإبانةً وأمانةً أقولُ: معظمُ ما قام به الفاضلُ المذكور في «مهذّبه» -من تهذيبٍ- مقبولٌ لديَّ، مَرْضيٌّ عندي، سوى ما أضافه- من عنده- تحت اسمي- على غلاف الرسالة- من لَقَبٍ علميٍّ[1] لا أستحقُّ- والله- بعضَه!

فجزاه الله خيراً على حُسن ظنّه، وغَفَرَ لهُ جزاءَ صنيعهِ!!

اللهمَّ اغفر لي ما لا يعلمون، واجعلْني خيراً ممّا يظنُّون، ولا تُؤاخِذني بما يقولون.

وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

وكتب

علي بن حسن الحلبي الأثري

الزرقاء في السابع من شهر رمضان

سنة (١٤٢٠هـ)، يوم الأربعاء.

---

(١) وقد استغلَّ ذلك- بغير حقٍّ- كعادتِهم! بعضُ أهل الأهواءِ؛ فطيّروا به ظُنونَهم، وسوّدوا- بمخالفتهم الشرعَ- بياضَ قراطيسِهم!

-مَدْخَلُ-

الحمدُ لله وحدَه، والصلاةُ والسلامُ على مَن لا نبيَّ بعده، أمّا بَعْدُ:

فهذه هي الرسالةُ الثالثةُ مِنْ سِلْسِلَتي العِلْمِيّةِ: «دراسات في السياسة الشرعية»، ولقد سَبَقَتْها رسالتان:

الأُولى: «البَيْعة بين السُّنَّة والبِدْعة».

الثانية: «التصفيةُ والتربيةُ وأثرُهما في استئناف الحياة الإسلامية».

وهذه هي الثالثةُ بين يَديك -أخي طالبَ العلمِ-.

وسَيَتْلُوها قريباً - إن شاءَ اللهُ- الرسالةُ الرابعةُ، وعنوانُها: «الدعوة إلى اللهِ بين التجمُّع الحِزْبي والتعاونِ الشَّرْعي». ثم طُبعت- ونفع الله بها- بحمده- سبحانه-.

سائلاً اللهَ -سُبْحانَه- النَّفْعَ لي ولإخواني، وأن يَهْدِيني وإيَاهم سواءَ السَّبيلِ.



مقدمة الطبعة الأولى

إنَّ الحمدَ لله؛ نحمدُهُ ونستعينُهُ ونستغفرهُ، ونعوذُ بالله مِنْ شُرورِ أنفسِنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِل فلا هادي له.

وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله - وحدَه لا شريك له -.

وأشهدُ أنْ محمداً عبْدُه ورسولُهُ.

أمّا بَعْدُ:

فإنَّ «فِقْهَ الواقعِ» -بثوبهِ الشرعيِّ- أَصْلُ أصيلٌ مِن قَواعِدِ الفقهِ في دينِ اللهِ - سُبحانَه -، وأساسٌ مُهِمٌّ مِن أُسُسِ الدعوةِ إلى الله - جَلَّ شأنُهُ -.

وهذا «الفِقْه» - على وجهِهِ الصحيحِ- مِنْ لُبِّ الإسْلام ولُبابهِ، يَعْرفُ به المُسْلِمُ خطأَهُ مِنْ صوابِه، إذا فَهِمَ مِن خِلالِهِ الأَحكام، وأَتْقَنَ معرفتَه بإحكام!

وَلَقد تنازَعَ كثيرٌ مِن دُعاة (العصر) هذا (الفِقْهَ)؛ كُلٌّ مِنْهم يَدَّعِيهِ لِنَفْسِهِ، مُتَّهِماً (غيرَه) بأنَّه لا يفهمُ (الواقعَ) ولا يَفْقَهُهُ!

حتّى وَصَلَ (جُموحُ) (واقِعِهم) إلى العُلَماءِ والأئمّةِ، مِنْ صفوةِ عُلماء الأمَّةِ! فَقَذَفُوهم بنَبَزاتِ هُزْئِهم، وَرَمَوْهُم بِحُمَمِ تَنْقيصِهم؛ فقالوا: «جَهَلة بالواقع»! «أغبياءُ سياسةٍ»!

قال الشيخ بكر أبو زَيْد في «حُكم الأنتماء» (١٤٨-١٤٩)- مشيراً إلى (بعض) صنائع هؤلاء (!)- قائلاً: «والعالِمُ الذي لم يَنْتَم إليهم يُلَقَّب بأنّه (ليس واعياً)، أو (غير واعٍ بالواقع)، و(غير فاهم للواقع)، وإلصاق التُّهَم الكاذبة بالعُلَماء، والتنفير منهم، والنظر إليهم بعين السُّخْط والاستصغار. . . وهكذا: تشييد جِسر ممتدّ من الغمز واللَّمْز لعلماء الأمّة، والتنقُّص بهم».

وهم (يُناكدون) أنفسَهم (ويُناقضون) (واقِعَهم): «نحنُ نحترِمُ عُلَماءَنا»! «نحنُ نُقَدّرُ مشايخَنا»!!

. . . ولقد جاءَني عَدَدٌ من الشباب (المُتَحمِّس) -مِراراً- يقولون: (لماذا لا تتكلّمون في فقه الواقع)؟!

وكنتُ أعجبُ لذلك أَشَدَّ العَجَبِ؛ فهؤلاء (!) لا يُجالِسونَ أهلَ العلم، ولا يشهدُونَ الدُّروسَ، ولا يقرؤون الكُتُب (!)، بل جُلُّ (ثَقَافتِهم) مقصورةٌ على قراءةِ (مجلّةٍ)، أَوْ سماع (شريطٍ)، أو تداوُلِ (نشرةٍ)، أو حضور

(مُحاضَرَة)!! ومَعَ ذلك يقولون: (فقه الواقع)!!

فأقولُ لهؤلاء: أهذا (فِقْهُ الواقعِ) الّذي تدّعونَ؟ أم أنّه (الفقهُ الواقعُ) الذّي أنتم به ساقِطون؟!

فلا قوّة إلاّ بالله!

وَلَقَدْ دَفَعَتْني تِلْكُمُ الكلماتُ -وغيرُها- إلى التفكير مَلِيّاً بهذا (الواقع) الذي نعيشُهُ وَنُطَبِّقُهُ، مُقَارَنَةً بأحوالِ (أُولئك)؛ مِن حيثُ التزامُنا بدعوةِ الكتاب والسُّنَّة على نَهْج سَلَفِ الأُمَّةِ؛ فهذه الدعوةُ المُحيطةُ الشاملةُ تَضَعُ جُلَّ اهتمامِها، وعظيمَ جُهْدِها في تثبيتِ العقيدة في النُّفوس، وفي تَقْرير التوحيدِ في القلوبِ والعقولِ، وفي تحقيق العبادةِ بأُصولِها وأركانها، مُقيمةً ساقَ أَمْرِهْا على ما هو وظيفةُ الرُّسلِ ودعوةُ الأنبياءِ على مَرِّ العُصورِ وكَرِّ الدُّهور:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾.

وَبَدهيٌّ أن يَتْبَعَ هذه القاعدةَ الأساسيّةَ الأصليّةَ مُتَمِّماتٌ لها، ومُكَمِّلاتٌ لحقيقتها: مِن علمٍ، وتَعْليمٍ، ودعوةٍ، وتصفيةٍ لما عَلَقَ بالإسلام مِن شوائبَ، وتربيةٍ على هذا الإسلام (المُصَفّى)، وغير ذلك مِن مُهِمّاتٍ واضحات[1].

هذا كُلُّه مِن جهةٍ.

ومِن الجهةِ المُقابلَة: تلك الأفكارُ المُتَنَاثِرةُ، وهاتيك الجماعاتُ المُتَغايرةُ، الّتي تَدَّعي (علانيَةً) أنّها صاحبةُ (فِقْه الواقع)، وحاملةُ رايتِهِ!!

فما هي ضَوابطُ هَذا (الفقهِ) المُدَّعىٰ عند هؤلاءِ؟!

أهي معرفةُ الكتابِ والسُّنَّةِ؟ أم الجَهْلُ بِهِمَا؟

فـ(فقهُ الواقع) إمّا أَنْ يكونَ مِن صَميمِ دينِ اللهِ -عزَّ شأنُهُ- أو لا يكونَ؟!

---

(١) فليس أمرُ هذه الدعوة - إذاً - كما قال (البعضُ) -مُوهِماً أو مُتَوَهِّماً- في رسالتهِ «مِن أخلاق الداعية» (ص٥٩-٦٠): «وتجدُ فئةً ثالثةً عُنيت بالإسلام العلمي، فهي تتعلم السُّنَّة والحديث، وتشتغلُ ببيان صحيحها مِن سقيمها، وتُحَذِّرُ الناسَ مِن روايةِ الأحاديث الضعيفةِ والموضوعةِ، وقد يصحبُ ذلك شيءٌ مِن الجفاءِ أو ضَعْف التعبُّد، أو الغفلة عن واقعِ الأُمّة وما يُدَبَّر لها»!
فأقول: هذا كلامٌ يُخالفُ (الواقع)!!

فإذا كانَ: فالمعرفةُ بالكتاب والسُّنَّةِ كفيلةٌ بأن توصِلَنا إليه، وتَحُثَّنا عليهِ! وعُلماؤنا وأئمَّتُنا هم أهلُه وخاصَّتُه.

وإنْ لم يَكُنْ: فَنحنُ في غَنَاءٍ عنه بكتاب ربِّنا وسُنَّةِ نبيِّنا ﷺ -بفهم السلف الصالح-؛ اللَّذيْنِ فيهما الشِّفاءُ والكِفايةُ!!

ولست أتَصوَّرُ أحداً مِن الدُّعاةِ الَّذين (يَلْهَجُون) بِذِكْرِ (فِقْهِ الواقع) - ويجعلونَه ديدَنهم وهِجِّيراهم - أنْ يقولَ بخلاف ما هو (واقعٌ)؛ مِن أنَّ (فقهَ الواقع) -بِصُورتِهِ (الشرعيّة)- فِقهٌ مُسْتَمَدٌّ مِن كتاب اللهِ - تقدَّسَتْ أسماؤه -، وسُنَّةِ النبيِّ - صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ -، وليس له أيُّ أصلٍ - سوى ذلك - مِن (أُطُرٍ) باردة، أو تَصوّراتٍ (وافدَة)!!

وإنّما قلتُ: (بصورتِهِ الشرعيّة) لأنَّ كثيراً من الشباب، -بل (الدُّعاة)- اخْتَلَطَتْ عليهم مفاهِيمُ هذا (الفِقْهِ)، وانقلبت عليهم (حقائقُهُ):

فَحَسِبُوا أنَّ (تَنْظِيرَ) الأَفكارِ باصطلاحاتٍ عَصْرِيّةٍ، وإخراجَها بأثوابٍ (حماسيّة)، وإشهارَها بطرائقَ عاطفية، وصِيَاغَتَها بقوالبَ (حِزْبِيّةَ)، وسياقَتَها بأساليبَ (سرّيّة): هو (فقهُ الواقع) المرجوُّ، وهو الأَمَلُ المَنْشود الَّذي يجبُ الالتقاءُ عليهِ والدَّعوةُ إليه!!

ولقد غَفَلَ هؤلاء -وغيرُهم- عن فِطْريّة الدعوةِ إلى اللهِ -تعالى-، وأنَّها مبنيّةٌ على أساس الحُججِ والبراهين، ودلائل اليقين، دونَ الزخارفِ أو التَّزيين.

«وعلى هذا النَّحْوِ مَرَّ السَّلَفُ الصَّالحُ في بَثِّ الشريعةِ للمُؤالِفِ والمُخالِفِ؛ ومَن نَظَرَ في استدلالهم على إثبات الأحكامِ التكليفيةِ: عَلِمَ أنَّهم قَصَدُوا أَيْسَرَ الطرق وأَقْرَبَها إلى عقولِ الطالبينَ، لكنْ: مِن غَيْرِ ترتيبٍ مُتكَلَّفٍ، ولا نَظْمٍ مُؤلَّفٍ، بل كانوا يرمونَ بالكلامِ على عَواهنِهِ، ولا يُبالونَ كيف وَقَعَ في ترتيبه؛ إذا كَانَ قريبَ المَأخَذِ، سَهْلَ المُلْتَمَسِ»[1].

وطريقةُ (فقهِ الواقعِ) القُرآنيّةُ -بسُهولةٍ ودونَ تَعْقِيدٍ- هي على نَحْوِ ما بيّنه الشيخُ العلاّمةُ عبدالرحمٰن السَّعْدي- رحمه الله تعالى- في كتابهِ «القواعدِ الحِسان لتفسير القرآن» (ص: ٥)، حَيثُ قال:

«كُلُّ مَن سَلَكَ طريقاً، وعَمِلَ عَملاً، وَأَتاهُ مِن أبوابهِ وطُرُقهِ المُوصلةِ إليه، فلا بُدَّ أن يُفْلِحَ وَيَنْجحَ، ويَصلَ به إلى غَـايتِـهِ؛ كمـا قـال -تعـالـى-: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ

(١) «الموافقات» (١/ ٥٩) للشاطبي.

﴿أَبْوَٰبِهَآ﴾، وكُلَّما عَظُمَ المطلوبُ تأكَّدَ هذا الأَمْرُ، وتعيَّن البحثُ التامُّ عن أمثلِ وأقومِ الطُّرُقِ الموصلةِ إليه.

ولا رَيْبَ أنَّ ما نحنُ فيه[1] هو أهمُّ الأمور وأجلُّها، بل هو أساسُها وأصْلُها.

فاعْلَمْ أنَّ هذا القُرآنَ العظيمَ أنزلَه اللهُ لهدايةِ الخَلْقِ وإرشادِهم، وأنَّه -في كُلِّ وقتٍ وزمانٍ ومكانٍ- يُرشِدُ إلى أهدىٰ الأمورِ وأَقْوَمِها: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾.

فَعَلَىٰ النَّاسِ أنْ يَتَلَقَّوْا معنىٰ كلامِ اللهِ كما تلقَّاهُ الصحابةُ -رضي اللهُ عنهم-؛ فإنَّهم كانوا إذا قَرَأوا عَشْرَ آياتٍ -أو أقلَّ أو أكثرَ- لم يَتَجاوَزُوها حتّى يَعْرِفوا ويُحَقِّقوا ما دَلَّتْ عليهِ مِن الإيمانِ والعِلْمِ والعَمَلِ، فيُنْزِلونها علىٰ الأحوالِ الواقعةِ؛ يُؤْمِنون بما احْتَوَتْ عليهِ مِنْ العقائد والأخبار، ويَنْقَادُونَ لأوامِرِها ونواهيها، ويُطبِّقونها على جميعِ ما يَشهدون مِن الحوادثِ والوَقَائعِ الموجودةِ بِهِم وبغيرِهِم، ويُحاسِبونَ أنفسَهم:

(١) أي: (الواقع) الذي نحياه، وانظر ما سيأتي (ص٨٠) مِن كلامِهِ -رحمه الله-.

هل هم قائمونَ بها؟ أو مُخِلُّونَ بحقوقِها ومَطْلوبها؟

وكيفَ الطريقُ إلى الثَّبَاتِ على الأمورِ النافِعَةِ، وَتَدَارُكَ ما نَقَصَ مِنها؟

وكيف التخلُّصَ مِن الأمورِ الضارةِ؟

فيهتدونَ بعُلومِهِ، ويتخلَّقونَ بأخلاقِهِ وآدابِهِ، ويعلمون أنَّه خِطابٌ مِن عالِمِ الغيبِ والشهادةِ، مُوَجَّهٌ إليهم، مُطَالَبُون بمعرفةِ معانيهِ، والعَمَلِ بما يَقْتضيهِ.

ومتى عَلِمَ العبدُ أنَّ القُرآن فيه بيانُ كُلِّ شيءٍ، وأنَّه كفيلٌ بجميعِ المَصَالِحِ؛ مُبَيِّنٌ لها، حاثٌّ عليها، زاجرٌ عن المضارِّ كُلِّها، وجَعَلَ هَذه القاعِدَةَ نُصْبَ عينيهِ، ونَزَّلَها على كُلِّ واقعٍ وحَادِثٍ، سَابقٍ أَوْ لاحقٍ، ظَهَرَ له عِظَمُ مَوقِعِها، وكثرةُ فوائِدها، وثَمَرَتُها».

قلتُ:

فالواجبُ المُحَتَّم -إذاً-: إخضاعُ واقِعنا المعَاصِرِ الذي نعيشُهُ؛ بما فيه مِن علمٍ، ومُشكلاتٍ وأحداثٍ، وفِتَنٍ: لقواعِدِ الدِّينِ وأصولهِ.

أمّا «الأمانيّ والمحاولات العاطفية، والجهود الّتي تعتمدُ

المناسباتِ والمصَالحَ الموسميّةَ، فهي أوهَى مِن أن تُقيم القاعدةَ الإسلاميةَ الجادّة، أو تحفظَ وحدتَها.

فما لم نحتكم إلى القُرآنِ -حقيقةً لا مظهراً-، بعد إسقاطِ كُلِّ القَنَاعات الشخصِيّةِ والموروثةِ مِن عُصور الصِّراع الإسلامي - الإسلاميِّ- وما لم تكنُ كُلُّ قناعاتِنا مُستنبطةً مِن الوحي، محكومةً بهِ: فلا أمَلَ لنا بوحدةٍ، أو عَمَلٍ، أو خَلاَص»[1].

فَفِقْهُ الواقع:

. . كتابٌ وسُنّة . . . عِلْمٌ وعَمَل . . .

. . سَدَادٌ وهِداية . . . فَهْمٌ ودراية . . .

. . بصيرةٌ ونَبَاهَة . . . تيَقُّظٌ وحُضور . . .

و ﴿إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

ولا حَوْلَ ولا قُوّةَ إلاّ باللهِ العزيزِ الغَفُور[2].

---

(١) «في منهجيّة الدعوة الإسلاميّة المُعاصرة» (ص٦) للأخ أحمد سلام -سدّده الله-.

(٢) كتبه: أبو الحارث الحلبيُّ الأثريُّ.

غروبَ شمسِ يومِ الخميس لعشرة أيام بقيت مِن شهر الله المحرم سنة (١٤١٢هـ).

هَدْيٌ مِنَ التنزيل

قال اللهُ –جلَّ اسْمُهُ–:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

وقال رسولُ الله ﷺ:

«قد كان مَنْ قَبْلَكم يُؤخَذُ الرجلُ فَيُحْفَرُ له في الأرْضِ، فَيُجْعَلُ فيها، فَيُجاءُ بالمِنْشار، فَيُوضَعُ على رأْسِهِ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْن، ويُمَشَّط بأمشاطِ الحديدِ مِن دونِ لحمِهِ وعَظْمِهِ، فما يَصُدُّه ذلك عن دينِهِ، واللهِ لَيُتِمَّنَّ الله هَذا الأمْرَ، حتّى يَسيرَ الراكبُ مِن صَنْعَاءَ إلى حَضْرَموتَ، لا يخافُ إلاّ اللهَ، والذِّئبَ على غنَمِهِ، ولكنّكم تَسْتَعْجِلُون».

رواهُ البخاريُّ (٦٩٤٣).

(١)

ما هو (فِقْهُ الواقع)؟

لَمَّا عُلِمَ «أنَّ حياةَ الأُمّةِ مُرْتَبِطةٌ -ثباتاً ونُمُوّاً وارْتِقَاءً- بِقَدْرِ ما تُحْيِيهِ مِن العَمَلِ بالوَحْيَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، ويكونُ نَقْصُها واختلالُ مَوازينِ الحَيَاةِ فِيها بِقَدْرِ الفَوْتِ مِن ذلك»[١]: كان ذلك سَبَباً وَجيهاً نَعْرِفُ مِن خلالِهِ الصُّورةَ الحقيقيّةَ لفقهِ الواقعِ حَسْبَما أَصَّلَه عُلماءُ الإسلامِ، وبَيَّنُوا قواعِدَه:

قال العلاّمة ابنُ القَيِّم[٢]:

«ولا يتمكّن المُفْتي ولا الحاكمُ مِن الفتوى والحُكْمِ بالحَقِّ إلاّ بنوعين مِنَ الفَهْم:

أحدُهما: فَهْمُ الواقعِ، والفِقهُ فيه، واستنباطُ علمِ حقيقةِ ما وَقَعَ بالقرائنِ والأَماراتِ والعلامات؛ حتّى يُحيط به علماً.

والنوعُ الثاني: فَهْمُ الواجبِ في الواقعِ: وهو فهمُ حُكمِ اللهِ الذي حَكَمَ بِهِ في كتابِه، أو على لسانِ رسولِهِ في هذا الواقعِ.

---

(١) «فقه النَّوازل» (١/ ٧) للشيخ بكر أبو زَيْد.

(٢) في «إعلام الموقعين» (١/ ٨٧).

ثم يُطَبِّقُ أَحَدَهما على الآخَرِ.

فَمَنْ بَذَلَ جُهْدَه واسْتَفْرَغَ وُسْعَهُ في ذلك لم يَعْدَم أجرينِ أو أجراً واحداً.

فالعالمُ مَنْ يَتَوَصَّلُ بمعرفةِ الواقعِ والتفقُّه فيه إلى معرفةِ حُكمِ الله ورسولِهِ».

قلتُ:

فهذا هو خُلاصةُ القولِ في «فقه الواقع» -دونَ تَمْطيطٍ أو تَفْريط-: معرفةُ حُكْمِ الله - سبحانَه - في كتابِهِ وسُنَّة رسولِهِ ﷺ، وتطبيقُ ذَلكَ على الوَقَائع الحاضرة والمسائل المُعاصرة.

قال ابنُ سُريج[1]:

«ليس شيءٌ إلاّ ولله -عَزَّ وجَلَّ- فيه حُكْمٌ؛ لأنّه -تعالى- يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾، وليس في الدُّنيا شيءٌ يخلو من إطلاقٍ أو حَظْر أو إيجاب؛ لأنَّ جميعَ ما على الأرْضِ مِن مَطْعَمٍ أو مَشْرَبٍ أو مَلْبَسٍ أو مَنْكحٍ، أو حُكْمٍ بين

(١) كما في «البحر المحيط» (١/ ١٦٥) للزركشي.

مُتشاجِرَيْنِ- أو غيرِهِ - لا يَخْلو من حُكْمٍ، ويستحيلُ في العُقولِ غيرُ ذلك».

لِذَا؛ كان مِن شُروطِ المُفتي: «معرفةُ الناسِ، وإلاّ راجَ عليه المَكْرُ والخِدَاعُ والاحتيالُ»[1].

وهذا هو معنى ما ورد عن إياس بن معاوية[2] -رحمه الله- مِن قولِهِ: «لستُ بالخَبِّ، ولا الخَبُّ يخدعُني».

فـ «فقهُ الواقع» هو إعمالُ قولِ الله - تعالى -: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾.
وقولِهِ- عزّ شأنهُ -: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾.

مِن غَيْرِ تَحْويرٍ ولا تَغْرير، مِن غير بَهْرَجةٍ ولا تَزْييف، مِن غيرِ تَزْيينٍ ولا تَحْريف!!

وعليهِ؛ فإنَّ مِن أَوّلِ مُقَوِّمات (فقهِ الواقع) معرفةَ الكتاب والسُّنَّة على نَهْجِ سَلَفِ الأمّةِ: تَطْبيقاً وعَمَلاً، لا ادِّعاءً وأمانيَّ!

(١) «الفكر السامي» (١/ ٤٢٨) لِلْحَجَويِّ.
(٢) «تهذيب الكمال» (٣/ ٤١٨) -للمِزّي-.
وقد اشتهر عن عمر -رضي الله عنه-، ولم أقف عليه مُسْنَداً!

فلا يَفْقَهُ «الواقعَ» مَن لم يعرفْ كتابَ ربِّهِ - سبحانه-، وسُنَّةَ نبيِّه ﷺ؛ عاملاً بمقاصِدِهما، مُلْتَزِماً بأحكامِهما.

أمّا ما يُذْكَرُ مِن أنَّه «صَعَد خطيبٌ مِن الخُطباءِ في إحدى القرى في يدِهِ كتابٌ يقرأ منه، فكانَ مِمّا قاله في آخِرِ خُطبتِهِ أَنْ دَعَا لأميرِ المؤمنينِ السُّلْطان العُثماني فلان، أن يُخَلِّدَ الله مُلْكَه، ويُؤَبِّد سُلْطانَه»[1]: فهذا-إنْ صَحّ- صنيعُ الخطيبِ الجاهلِ بالكتابِ والسُّنَّة، لا صَنِيعُ العالمِ الواعي، والفقيه البصير!!

وما أكثرَ خُطَباءَ المناسبات والحماسات، والقَصص والإشاعات في هذا العَصْر!!

ولا بُدَّ- هُنا - مِن القول بوضوحٍ تامٍّ: إنَّ إرجاعَ مَجْدِ الإسلام التَّليد، وإعادةَ سُؤْدُدِهِ الْغَابِر، وَرِفْعَةَ منارِهِ الساطِع، لا يكونُ إلاّ بالمنهج الرَّبانيِّ، والهَدْيِ النبويِّ، حيثُ لا سَبِيلَ سِواهُ، ولا طريقَ عَداه:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

---

(١) «مِن أخلاق الداعية» (ص٦٤)!

ولا قِيَامَ لِسَاقِ هذه الدَّعْوةِ إلاّ بالعِلْمِ؛ الّذي هو ضِيَاءُ البَصيرةِ ونورُها، وأسُّها وأساسُها.

ولا عِلْمَ حقيقيّاً (واقعيّاً) إلاّ عِلْمُ كتابِ الله - سبحانه-، وَسُنّةِ رسولهِ ﷺ؛ فهما المحجَّةُ البيضاء، والدُّرّةُ العَصْماء.

ولا فَهْمَ يُوْصِلُنا إلى هذا العِلْمِ -نَنْجُو بهِ مِن دخائِلِ النُّفوسِ، وظُلُماتِ الهوى- إلاّ (فهمَ سَلَفِ الأمّة)، وصفوة الأئمَّة... فهو سَبيلُ الإيمان... وصِمَام الأمان.

وأمّا ما يُوصَف- اليوم- بـ (الفكر الإسلامي)(!) فهو بعيدٌ عن هذا الحقِّ بعد الغَرْب عن الشَّرْق!!

واللهُ الهادي....



(٢)

ثَوَابِتُ (فقهِ الواقعِ)

وَثَوَابِتُ «فقه الواقع» منثورةٌ عَبْرَ آياتٍ كثيرةٍ مِن كتاب الله -سبحانه-، وفي سُنَّةِ وسيرةِ رسول الله ﷺ؛ فَمَنْ أحاطَ بقواعِدِها، ومُهِمَّاتها: أحاطَ بأصولِ «فقه الواقع» وفروعه، ودلائلهِ وتطبيقاتِهِ، بل إنَّ كتابَ الله كلَّه؛ بسُورِهِ وآياتِهِ وكلماتِهِ، بقَصَصِهِ وَأحكامِهِ، بزَجرِهِ وأمرِهِ: إنَّما نَزَلَ دواءً للواقعِ، وبيَاناً للأحكام الطارئة حَسَبَ الحوادثِ، وعلاجاً للأدواءِ، وحَلاًّ لمشاكل الأمَّةِ ومعُضلاتها.

فأجتزيءُ شيئاً من تلكم الآيات القُرآنيّة التي هي عُمُدُ (ثوابت) هذا الفقه السَّديد، ذي النهج الرَّشيدِ:

قال الله - تعالى -: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

وقال- سُبحانه-: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾.

وقال- سبحانه- : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ .

ويقولُ- سبحانه- : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ .

يقولُ -سبحانه- : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ .

ويقولُ -سبحانه- : ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ .

ويقولُ -سبحانه- : ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ .

ويقول -سبحانه- : ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

ويقول- سبحانه- : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ .

ويقولُ - سبحانه- : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ .

ويقول- سبحانه- : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ .

ويقولُ- سبحانه- : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ويقولُ- سبحانه- : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ .

ويقولُ- سبحانه- : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ .

ويقولُ- سبحانه- : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ .

قلتُ:

فهذه الآيات قُلٌّ مِنْ جُلّ[1] - وأمثالُها في القرآن كثيرٌ -، ولكنّها كافيةٌ لمن فَهِمَها وتدبَّرها أن يعرفَ (واقِعَهُ) الَّذي يعيشُهُ؛ مهما تعدّدت أشكالُهُ، ومُجتمَعه الذي يحياه؛ مهما تنوّعت صُورَهُ؛ ليطبِّق مِن خِلالِ ذلك كُلِّه «فقه الواقع» المنشود، في ظِلِّ ذلك (الأمَل) المفقود!

ولو نَظَرَ كُلُّ واحدٍ مِنّا (الآنَ) في العالَم المُتَصَارِع الَّذِي نعيشُهُ: هل تَخْرُجُ شاذَّةٌ منه أو فاذَّةٌ عن هذه الآيات العظيمة؟!

لو نَظَرْتَ إلى «البيت الأبيض» ومُخطَّطاتِهِ، وأنظمتِهِ، وأجهزتِهِ!

ولو نَظَرْتَ إلى «الكْرِمْلين»، وتهاويهِ، وتداعيهِ، وتفتُّتِهِ!

ولو رَجَعْتُ بِنَظَرك إلى سَنَةِ (١٩٢٤هـ)، وهي سنةُ سقوط دولة الخلافةِ العُثمانية، وما أعقبَ ذلك مِن تقسيمات (تركة) (الرجل المريض)!

ولو نظرتَ إلى (أحجار) (رُقْعة الشِّطْرَنج) المتحرّكة يميناً وشمالاً! الْمُتَقَاذَفَةِ هُنا وهُناك!

---

(١) وانظر ما سيأتي (ص٨٣) و (٩٣).

ولو نَظَرْتَ إلى (الصِّلات) التي يجبُ أنَّ تكون بين المؤمِنين بعضِهم بعضاً!

ولو نَظَرْتَ إلى (العَلاقات) الواجبِ وجودُها بين المُسلمين ومُناوئيهم ولاءً وبراءً!

لو أَجَلْتَ نَظَرك في هذا كُلِّه -فضلاً عن غيرِه مِمّا قبلَه أو بعده- فهل تعْزُبُ عن تِلْكُمُ الآياتِ حادثةٌ أو قضيّةٌ!؟

أم أنَّ الصِّراع بين الكُفر والإيمان يُعيد نفسهَ عبرَ البُلدان على مَرِّ الأزمان! لكنْ باختلاف الأسماء والأشخاص! وبتغايرُ الوسائل والطَّرائقِ!

فتأمَّلُوا -رعاكم الله- صِراعنا المعاصرَ مع أعداءِ الله، مُقارنةً بصراعِ اليهودِ الأُولِ مَعَ النبيِّ ﷺ في فَجْرِ دَعْوتِهِ. . . فماذا تَرَوْنَ؟!

إنَّها «المعركة التي شنَّها اليهودُ على الإسلامِ والمسلمين منذ ذلك التاريخ البعيد، ثم لم يَخْبُ أُوارُها حتى اللحظةِ الحاضرة، بنفس الوسائل، ونفس الأساليب، لا يتغيَّر إلاّ شكْلُها. . . أما حقيقتُها فباقيةٌ. . . وأمّا طبيعتُها فواحدةٌ»[1].

---

(١) «الظلال» (١/ ٦٣-٦٤)!!

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

قلتُ: هذه سُنّةُ الله ترجعُ وتتكرّر، فلن تتغيّر أو تتحوّر:

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾.

فثوابتُ «فقه الواقع» واحدةٌ، وقواعدُهُ راسخةٌ، مهما تغيّرت (الصُّور) ومهما تعدّدت (الأشكال)! فالحالُ هو الحال!

ولا قُوّةَ إلاّ بالله العظيمِ المُتَعال.

لِذَا؛ فإنَّ هُناك أصلاً عظيماً يجبُ تصوُّرُهُ وتطبيقُهُ، تحقيقاً لهذِهِ (الثوابتِ)، وهو التَّركيزُ على تلك الأصولِ الكُلِّية المنبثقةِ مِن القُرآنِ والسُّنَّةِ في كُلِّ حينٍ وآن، حتى تكونَ كالأسس التي يُبنى عليها هذا البُنيان، لِيَتِمَّ -في

ضَوْئها- فهمُ -ومعاملةُ- كُلِّ طارىءٍ أو حادثٍ في كُلِّ زمانٍ ومكان!

أمّا أنْ (ننتظرَ) وقوعَ الأحْداثِ، أو حدوثَ الوقائع (!) ثم نتسابقَ إلى تنزيل النصوص عليها - بعجلة ومسارعَةٍ- : فهذا بعيدٌ عن «فقهِ الواقع» بمقوِّماتِهِ وآثارِهِ، وإنّما هو انْجِرارٌ وراءَ عواصفِ الأحداث ومُدلهمّات الفتن!

وعليه:

فإنَّ «**الاهتمامَ بفقه الواقع اهتماماً زائداً- بحيث يكون منهجاً للدعاةِ والشباب، يُرَبُّون- ويتربَّون- عليه؛ ظانِّين أنّه سبيلُ النجاة: خطأٌ ظاهرٌ، وغَلَطٌ واضحٌ**»[1]!

وبعد هذا كلِّه أقولُ:

إنَّ الدَّعوةَ الإسلاميّةَ اليومَ «تُواجهُ حالةً شبيهةً بالحالة التي كانت عليها المجتمعاتُ البَشَريّةُ يومَ جاءَ الإسلامُ -أولَ مرَّةٍ- من ناحيةِ الجَهْلِ بحقيقةِ العقيدةِ الإسلاميةِ، والبُعْدِ عن القِيَمِ والأخلاقِ الإسلاميّةِ - وليس فقط البُعْدَ عن النِّظامِ الإسلامي والشريعةِ الإسلامية- .

(١) «سؤال وجواب حول فقه الواقع» (ص٤٨) لشيخنا الألباني- رحمه الله-.

وفي الوقتِ نفسِهِ تُوْجَدُ معسكراتٌ صهيونيّةٌ وصليبيّةٌ استعماريّةٌ قويةٌ، تحارب كُلَّ محاولةٍ للدعوةِ الإسلاميةِ، وتعملُ على تدميرها عن طريقِ الأنظمةِ والأجهزَةِ المَحلّيّةِ؛ بتدبير الدَّسائسِ والتوجيهات المُؤدِّيةِ لهذا الغَرَض، ذلك بينَما الحَرَكاتُ الإسلاميةُ تَشْغَلُ نفسَها في أحيانٍ كثيرةٍ بالاستغراقِ في الحَرَكاتِ السياسية المحدودةِ المحلّية، كمُحَاربَةِ مُعاهدةٍ، أو اتِّفاقيّةٍ، وكمحاربة حزبٍ، أَو تأْليبِ خَصْمٍ في الانتخاباتِ عليهِ!

كما أنّها تَشْغَلُ نفسَها بمُطالَبَةِ الحكوماتِ بتطبيقِ النظام الإسلاميِّ والشريعةِ الإسلاميةِ، بينَما المجتمعاتُ ذاتُها -بجُمْلتها- قد بَعُدَت عن فَهم مدلولِ العقيدةِ الإسلاميةِ والغَيْرَةِ عليها، وعن الأخلاقِ الإسلاميةِ. . .

ولا بُدّ - إذن- أن تبدأ الحَرَكاتُ الإسلاميةُ من القاعدةِ: وهي إحياءُ مدلولِ العقيدة الإسلامية في القلوب والعقول، وتربيةُ مَنْ يَقْبَلُ هذه الدعوةَ وهذه المفهوماتِ الصحيحةَ، تربيةً إسلاميةً صحيحةً، **وعدمُ إضاعةِ الوقتِ في الأحداثِ السياسيةِ الجاريةِ،** وعدمُ مُحاولاتِ فَرْضِ النِّظام الإسلاميِّ عن طريق الاستيلاءِ على الحُكْمِ قبل أنْ تكون القَاعدةُ

المسلمةُ في المجتَمعاتِ هي التي تَطْلُبُ النظامَ الإسلاميَّ؛ لأنّها عرَفَتْهُ على حقيقتهِ، وتريدُ أن تُحكَمَ به»[1].

«إذ إنّ الوُصولَ إلى تطبيق النظام الإسلاميِّ والحُكْم بشريعةِ اللهِ ليس هدفاً عاجلاً؛ لأنّه لا يُمكن تحقيقُه إلاّ بعدَ نقل المجتَمعاتِ ذاتِها- أو جُمْلَةٍ صالحةٍ منها ذاتِ وَزْنٍ وثِقَلٍ في مجرى الحياةِ العامّةِ- إلى فهمٍ صحيحٍ للعقيدةِ الإسلاميةِ، ثم للنظام الإسلاميّ، وإلى تربيّةٍ إسلاميّةٍ صحيحة على الخُلُق الإسلاميِّ مهما اقتضى ذلك من الزَّمَن الطويلِ والمراحلِ البطيئةِ»[2].

فهذا هو النَّهْجُ الحقيقيُّ الأساسيُّ لتطبيقِ (ثوابتِ فقه الواقعِ)، دونَ عَواطِفَ تَجْرِفُ.. ولا حَمَاساتٍ تَحْرِفُ.. ولا (حَرَكيّةٍ) عن الحقِّ تصرفُ....

فكُن -أخي الداعيةُ- منه على ذُكْرٍ... تُفْلِحْ وتَنْجَحْ.

□□□□□

(١) «لماذا أعدموني» (٢٧-٢٨)!!

(٢) المرجع السابق!!



(٣)

سياسةُ (فِقهِ الواقعِ)!

بعد وَعْيِ ما سَبَقَ مِن (ثوابتَ) وفَهْمِهِ: وَجَبَ معرفةُ (السِّياسة) الَّتي ينبغي على الدُّعاةِ أنْ يسلكوها ويَدْعُوا الناسَ إلى أنْ ينتهجوها:

عن أبي هُريرة - رضي الله عنه -، قال: قال رسول الله ﷺ: «كانت بنو إسرائيل تسوسُهم الأنبياءُ، كُلَّما هَلَكَ نبيٌّ خَلَفَه نبيٌّ، وأنَّه لا نبيَّ بَعْدي، وسيكونُ خُلَفَاءُ، ويكثُرون».

قالوا: فما تأمرُنا؟

قال: «أَوْفُوا بِبَيْعَةِ الأوَّل فالأوّلِ، ثم أعْطوهم حقَّهم، فإنَّ اللهَ سائلُهم عمّا استرعاهُم»[١].

فالسِّياسةُ -بتعريفها العلميِّ الشرعيِّ-: هي «رعايةُ شؤون الأُمَّةِ»[٢]، وهذا ما جاء الإسلامُ لتحقيقهِ؛ بآياتِه وأحاديثِهِ، بأوامرِه وأحكامِهِ، بقواعدِهِ وتأصيلاتِهِ.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٥) ومسلم (١٨٤٢).

(٢) قارن بـ«خطط المقريزيّ» (٣/ ٣٥٧).

فالسِّياسةُ في «فقه الواقع» هي تطبيقُ ثوابتِ الكتاب والسُّنَّة على مستجدَّات العَصْر، دونَ مُوارَبَةٍ باطلةٍ، ولا مُماحَكَةٍ خادعةٍ، ولا (استغلال) لكلِّ حادثة!

وليست هذه «السياسة الشرعيّة» كتلك السياسة الفاسدة الّتي أصَّل أُصولَها أولئك الكَفَرَةُ المُخادعون، والمُشركون المُفسدون!!

إنَها ليست سياسة «ميكافيلِّي» صاحب الكذب والخداع، والمَكْر والتمويهِ!

إنّها ليست سياسةَ «الأمير»[1] المبنيَّةَ على «دبلوماسيّة» الدَّجَلِ والتزوير، و «بروتوكولات» النِّفاقِ والتغرير!

إنّها «السِّياسةُ الإلهيّة، والإبانةُ النبوية [الَّتي] لا يَسْتَغْني عنها الراعي والرعيّة»[2].

وتَطْبيق هذه «السياسة» على «الواقع» لاستخلاص «فقه» التعامل معه يكونُ على حالَيْنِ:

---

(١) هو اسمُ كتاب ميكافيلِّي -ذاك-!

(٢) مِن كلام شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله- في كتابِهِ «السياسة الشرعية» (ص١١)، وفيه: «والإنابة»! ولعلّ الصواب ما أثبتُّ.

أولاً: وقائعُ حادثةٌ ظاهرةٌ، بيِّنٌ فيها حُكْمُ اللهِ -سبحانَه-، بأدلّته الواضحة، وبراهينهِ الثابتة، فيُطَبَّقُ عليها ما (يُستطاع) تطبيقُهُ من أحكام؛ وذلك بالرجوع إلى العلماء والأئمة، وفُقهاء الأُمّة. . . ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ثانياً: أحداثٌ ظَنِّيَّةٌ مُتوقَّعةٌ، قائمةٌ على (الاحتمالات) و(التَّحْليلات) و(الظُّنون)! وأحياناً: (التخيُّلات)!!

فهذه (الأحداث) يُتعامَلُ معها على تخوُّفٍ؛ لأنّها لم تَقُمْ على ساق، ولا ثَبَتَ لها أساس.

وجُلُّ (مسائل) السياسة المعاصرة (وصُورها) تابعةٌ لهذهِ الأحداث (الظنيّة)، مبنيّةٌ عليها.

ولكنَّ هذا كُلَّه لا يمنع من الحيطة، والحَذَر، والتَّيَقُّظ.

وليس مِن شَكٍّ بعد كُلِّ ما سَبَقَ أَنَّ «رعايةَ شؤونِ الأُمّةِ تحتاجُ إلى منهجٍ؛ [فَهَلَ] يُوجَدُ منهجٌ يصلُحُ لهذهِ المهمّةِ غيرُ الإسلام؟

إذن: فالإسلامُ سياسةٌ بمفهوم الإسلام»[1]، لا بمفهوم

---

(١) «الجماعات الإسلاميّة في ضوء الكتاب والسنة» (ص١٦٦).

وسائل و (أدواتِ) الإعلام! ولا بطرائق أهل (الفكر) الغُرباء عن العلمِ وهُداته الأعلام!!

والسَّلام!

ويجبُ أنْ نعلمَ حقيقةً شرعيّةً ثابتةً - علماً يقينياً تتفتّحُ به عقولُنا، ونستيقظُ به على حقيقةِ (واقعنا) -وهي «أنَّ ما أصابنا وما يُصيبُنا، وما سَيُصيبُنا، إنَّما هو بما كَسَبَتْ أيدينا، ومِنْ تَقْصيرنا في حَقّ ديننا، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾.

ولقد اعْتادَ بعضُ الدُّعاةِ أنْ يُلْقُوا تَبِعَةَ ما يُصيب المُسْلمين على أعْدائهم!! وفَضْلاً عن أنَّ هذا مُخالفٌ للمنهج الربانيِّ، والهَدْي النبويِّ فإنَّ فيه مفاسدَ عظيمةً، وسلبياتٍ كثيرةً:

١- مخالفتُهُ للكتاب والسُّنَّةِ في تَحْليلِ الوَقائع، فاللهُ -سُبحانه- ألقى تَبِعَةَ هزيمةِ أُحُدٍ وحُنَين على المسلمين أنفسِهم، رُغْمَ أَنَّ الكُفّار هُمُ الذين فَعَلُوا ما فَعلوا.

﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم..﴾.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾.

٢- فيه تعظيمٌ للكُفَّارِ في نُفوسِ المسلمينَ- بادِّعاءِ أنهّم أصحابُ الأمر والتدبير، والنجاح في كُلِّ صغير وكبير!- ممّا يزيدُ الأُمةَ وَهَناً على وَهَنِها الكثير!!.

٣- فيه تزكيةٌ للنفسِ، بمعنى أنّنا اسْتكْمَلْنا شروطَ النَّصرِ، واسْتَحْقَقْنا التّمكينَ، ولكنّ الكُفّار غَلَبُونا على هذا، ويترتّب على ذلك إهمالُنا لتربيةِ أنْفُسِنا، ومراجعةِ حسابنا، كما يترتّب على ذلك أمرٌ عظيمٌ وخطيرٌ؛ وهو [ظَنٌّ]:

٤- أنَّ اللهَ لم يُوْفِ بوعدِه في نَصْر المُسْلمين، وأنّ الكُفَّار غَلَبُوا أمرَ اللهِ، قال- تعالى-: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾.

وذلك:

٥- يُنْبِىءُ عن ضَعْفِ اليقينِ باللهِ، وضَعْفِ التوكُّل عليه، وليس معنى تَحْميل تَبِعَةِ ما يُصيبُ المُسْلِمين من أنفُسِهم، تبرئةَ الكُفَّارِ وأعداءِ الإِسلامِ ممّا يَفْعَلُونَه بالمُسلمين، فهذا أمرٌ وذلك أمرٌ آخرُ...

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾.

فعندما أَخْبَرَ الله -سبحانه وتعالى- بأسباب هَزيمةِ أُحُد، لم يُفْهَم من هذا أنّ الله بَرَّأَهُمْ مِمّا فَعَلُوا بالمُسْلمين»[1].

فـ «السياسةُ» الحَقَّةُ: أنْ تعرفَ موقعَك، وترعى أمَّتَك، وتفهم -بحقٍّ- واقِعَك، وتدعُوَ قبيلَك..

وسوى ذاك: فكذبٌ وهراء! وجريٌ وراءَ الأهواء!! وركوبٌ للفتن الهَوْجاء!!!

لأنَّهُ مُخالَفَةٌ لِهَدْيِ ربِّ السَّماء، وتنكُّبٌ لِنَهْجِ الرُّسُل الأنبياء، وبُعْدٌ عن طريقِ الدُّعاةِ الأسْوِياء.

أمَّا اللُّهاثُ وراءَ (السِّياسات) الفارغة، والسَّعْيُ خَلْفَ (الوقائع) (!) الخَيَاليَّة المُتكَرِّرة... فَهُوَ ما يُخَطِّطُ له أَعْداءُ الأمةِ- ويتمنَّوْنَ وقوعه-؛ لِيَحْرِفوا الشَّبابَ المسلمَ عن مَوْقِعِهِ الحقيقيِّ، ويَصْرِفوهم عن واجِبِهم الأساسِيِّ، ويُبْعِدوهم عن هَدَفِهم الأوَّليِّ...

---

(١) «السبيل..» (٣٨-٣٩).

(٤)

حُكْمُ النَّظَر في (فقه الواقع)

مِمّا اتَّفَقَ عليه أَئمَّةُ العُلَماء، وكان بَيِّناً جليّاً عند الطُّلاَّب النُّبَلاء: أنَّ المَعَارفَ الإسلاميّة، والواجباتِ الشرعيّة تُقْسَمُ إلى قسمين: فُروضُ أعْيان، وفُروضُ كفاية:

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيميّة[١]:

«لا رَيْبَ أنَّه يجبُ على كُلِّ أَحَدٍ أنْ يُؤْمِنَ بما جاءَ به الرسولُ ﷺ إيماناً عامّاً مُجْمَلاً، ولا رَيْب أنَّ معرفةَ ما جاءَ به الرسولُ ﷺ على التفصيلِ فَرْضٌ على الكفايةِ؛ فإنَّ ذلك داخلٌ في تَبْليغِ ما بَعَثَ الله به رسولَه ﷺ، وداخلٌ في تدبُّر القرآنِ وعَقْلِهِ وفَهْمِهِ، وعِلْمِ الكتابِ والحكمةِ، وحِفْظِ الذِّكْرِ، والدُّعاء إلى سَبيلِ الرَّبِّ بالحكمةِ والموعظةِ الحَسَنَةِ، والمُجادلةِ بالّتي هي أحسنُ، ونَحْوِ ذلك مِمّا أوجبه الله على المؤمنين، فهو واجبٌ على الكفايةِ منهم.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣١٢).

وأمّا ما يجبُ على أعيانهم: فهذا يتنوَّع بتنوُّع قُدَرِهِم، ومعرفتِهِم، وحاجتِهِم، وما أُمِرَ به أعيانُهم، فلا يجبُ على العاجزِ عن سماع بعضِ العلمِ ما يجبُ على القادرِ على ذلك، ويجبُ على مَن سَمِعَ النُّصوصَ وفَهِمَها مِن علمِ التفصيلِ ما لا يجبُ على مَن لم يَسْمَعْها، ويجبُ على المُفْتي والمُحَدِّثِ والمُجادلِ ما لا يجبُ على مَنْ ليس كذلك».

قلتُ: فأنتَ ترى -أخي المسلمُ- هذا التقسيمَ العلميَّ الشرعيَّ؛ ففي أيِّ القسمين يكونُ «فقهُ الواقع» بصُورتهِ (الشرعيّة) لا (الخياليّة) (التصوُّريّة)؟

ليس مِن شَكٍّ عند كُلِّ ذي نَظَرٍ أنَّ هذا «الفِقْه» إنّما يجبُ- بصورتهِ الشرعيّةِ- على بعضِ (عُلماءِ) الأُمَّة -لا كُلِّهم- يُبيِّنون بين الحينِ والآخَرِ (الحقائقَ) الَّتي ظَهَرَتْ لهم نتيجةَ (التتبُّع) و (اليَقَظَةِ) لِمَا يُحيكُهُ أعداءُ الإسلام ضِدَّ الإسلام، لِيأْخُذوا (حِذْرَهم)، لا لِتَعْبِئَةِ العواطفِ، و(تَفْريغِ) الحماسات. . . حَسْبُ!!

والنَّاظرُ في هذا «الفِقْه» يجبُ أنْ يكونَ على دَرَجَةٍ عاليةٍ مِن العلمِ، ومن الوَعْي، ومِن الفَهْمِ؛ حتّى لا تَنْطليَ عليه أَراجيفُ (السَّاسةِ)، وخَباثات (الإعلام)!

لا أنْ يكونَ (طِفْلاً) يُرَدِّدُ ما يسمعُ دونَ وَعْيٍ، ومِن غيرِ فَهْمٍ؛ كما هو الحالُ -الآنَ- في كثيرٍ مِنَ (الخائِضين) «فقهَ الواقعِ» دونَ أهليّةٍ أو معرفةٍ!!

ولقد (قرأتُ) في رسالةٍ كتبها- قريباً- (كبيرٌ) من كُبرَاء (الماسونية) -لأعوانه- (يُوَجِّهُهُم)، ويُرشدهم، و(يُنَظِّر) لهم -واصفاً حالَ غير الماسونيِّينَ-: (. . . لأنّهم تخلَّوا لنا عن حقِّهم في التفكير، والتوجيه؛ وبخاصةٍ بعد أن سَيْطَرْنا على كُلِّ وسائل الإعلام والصحافة، ولهذا فهم دائماً بانتظار ما نقوله، وما نوجِّهه إليهم، فيتَّخذون أقوالنا ليردّدوها- دون وعي منهم، وإدراك-، ويتقبّلون توجيهاتِنا دون تحقيق أو نقاش. .»[1].

أقولُ: فالتهويلُ الكبيرُ الذي أُحيط به «فقهُ الواقعِ» بِأَخَرةٍ، ليس مِنَ شَكٍّ أنّه أثر من هذه البَلِيَّة، ولا حَظَّ له في المنهجية!

والإنكارُ الشديدُ الذي يُدَنْدِنُ به (دُعاتُه) على (غَيْرِهم) مِن أهلِ العلمِ وطُلاَّبهِ ليس له في الحَقِّ مكان!

(١) صحيفة «العرب اليوم» (١٤/ ١٢/ ٩٩)، وانظر ما سيأتي (ص٦٥).

إذ إنَّ هؤلاء (الدُّعاة) يَزْعُمون أنّهم بـ «فقه الواقع» عالِمون، وبأحوالِ الشرقِ والغرب عارفون، ومِن ألاعيب السِّياسة مُحَذِّرون... فهم -إذاً- بفَرْضِ الكفايةِ قائمون...

فلماذا على غيرهم يُنْكِرون؟!

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

فالواجبُ الشرعيُّ -إذاً- يَطْلُبُ أنْ يتخصّص (بعضُ) (النَّابِهين) لدراسة هذه (الوقائع) وتتبُّعها، بعد معرفةٍ تفصيليّةٍ دقيقةٍ بحقائقِ البيانات الشرعيّةِ -بتوجيهاتِ خاصّة أهلِ العلم-، وبصُنوفِ التحذيرات الإلهيّة، حتّى تتميَّز الأولويّاتُ، ولا تختلِطَ الأوراقُ!

ثم نقولُ:

إنَّ نَعْيَ (البعضِ) على (بعضٍ) آخَرَ؛ بجهلِ «فقهِ الواقع»، أو «الغفلةِ عن واقع الأُمّةِ وما يُدَبَّر لها» (!) كثيراً ما يكونُ فيه ظُلْمٌ، وبُعْدٌ عن الصوابِ...

إذ ما هو المِقْياس الذي به تُعْلَمُ هذه (الغفلة) أو ذلك (الفقه)؟

هل هُو مجرَّدُ كتابةِ المقالات! وإلقاء المحاضرات! وتَجْميع الصُّحُف والمجلاَّت!

هَيْهات... هَيْهات...

إنّ الجُهْدَ الدَّؤوبَ الصامتَ الهادىءَ المُرافِقَ في جُزْئيّاته (كُلِّها) لِلْوَحْيَيْنِ الشريفَيْنِ... خَيْرٌ بألفِ مرّةٍ مِن صَخَبِ (الإعلام)، وضجيج (المُحاضرات) (الفِكْريّة) الّتي غالباً ما تُبْنى على الخَرْصِ والظَّنِّ!!

ضِعَافُ الأُسْدِ أكثرُها زئيراً   وَأصْرَمُها اللَّوَاتي لا تَزيرُ

□□□□□

(٥)

(فِقْه الواقعِ)

بينَ الوَهم والحقيقةِ

بَدَأَتِ المعالمُ بالظُّهور، وبَرَزَتْ أَماراتُ المنهجيّةِ بوضوح، وخَفَتَ صوتُ العواطفِ، وبَهَرَ ضَوْءُ الكتاب والسُّنَّة، وعَلاَ منارُ التعقُّل والأناةِ.

فَحقيقةُ «فقه الواقع» مِن غير زُيوفٍ ولا رُتوشٍ: تَطْبيقُ أحكامِ الإسلام على النفس والمجتمع، بعلمٍ ودرايةٍ وبصيرةٍ.

حقيقة «فقه الواقع»: إنْفاذُ الأحكام: ولاءً وبراءً، أخذاً وعطاءً!

حقيقةُ «فقه الواقع»: العَمَلُ بالعلمِ، والسَّيْرُ على طريق الهدايةِ بِحِلْم، دونَ حماساتٍ تجرفُ، ومِن غيرِ عواطفَ تحرفُ!

حقيقةُ «فقه الواقع»: معرفةُ أقدار النفوس، والوقوفُ عند حُدودِ الشَّرع، دونَ تَعَدٍّ أو تَحَدٍّ!

حقيقة «فقه الواقع»: إعمال الحب في الله والبُغض في الله؛ دون مُواربة أو مُداراة، وَبِتأَسِّي نهج السَّلَف في ذلك؛ اتِّباعاً وتطبيقاً، تنفيذاً وتحقيقاً!

حقيقةُ «فقه الواقع»: الدعوةُ إلى الله بعلمٍ وعلى بصيرةٍ؛ بأخوَةِ الإسلام، وفطريّة الدعوة، ونقاء السّرائر، وإخلاص القلوبِ، دونَ (شرذمةٍ) أو تحزُّب، من غير (تمحوُرٍ) أو تعصُّب!

وعُلماءُ الإسلام هم القائمون بذلك، المُؤتَمَنون عليه.

أمّا (الوَهَمُ) الذي يعيشُهُ (البعضُ)- ظَنّاً مِنْهُم أنّهم فُهمَاءُ «فقه الواقع»! وهُم -في (الحقيقة)- دُعاةُ «الفقه الواقع» (!) - فهوُ ظنُّهم أنَّ مَقوّمات «فقه الواقع» هي تتبُّع وكَالات الأنباء العالمية! وقراءةُ الصُّحف الغربيّة!

هل هذا هو «فقه الواقع» الذي يجبُ أنْ يعيشَه المُسلمون واقعاً فقهيّاً؟

هل إقامةُ المحاضرات «الفكرية» و «المهرجانات الخِطَابيّة»، وإصدارُ النَّشْرات «العصرية» هو أماراتُ (فقهِ الواقع)؟

هل سماعُ «مونت كارلو» و «صوت أمريكا» و «إذاعة لُندن» هو قاعدةُ فقه الواقع؟

هل أخبار «سقوط الشيوعية» و «الهَيْمَنة الأمريكيّة» و«النفوذ اليهودي» مِن أصولِ فقهِ الواقع؟

هل إصدارُ (صكوك) التكفير، وَوَصْم (جميع) حُكّام المسلمين (بالرِّدَّةِ)[1] مِن (حقائق) فقه الواقع؟!

هل استكناه خبايا «النّظام العالمي الجديد» وأسرار «حَرْب النُّجوم» وتفاعُلات «البروسترويكا» مِن لُباب فقه الواقع؟

هل قراءة مقالٍ عن دراسة أسباب «الوحدة الأوروبيّة» وخفايا حقيقة «القوميّة العربية» والأهداف «العِلْمَانية» مِن أُسُس فقهِ الواقع؟!

هل القيامُ بـ «مُظاهرَة» أو «مسيرة» أو «إضراب» يُعَدُّ رمزاً من رموز فقه الواقع؟!

هل اللُّهاثُ وراءَ مُجريات «قضيّة فلسطين» (!) وأزمة «الشرق الأوسط» (!) و «مُؤتمرات المائدةِ المُسْتَدِيرة»

(١) انظر كتابَيّ «التحذير من فتنة التكفير»، و«صيحة نذير بخطر التكفير».

مِن عُمُد فقه الواقع؟!

هل المشاركة بـ (برلمان) أو رئاسة (بَلَديّة) مِن (مظاهر) فقه الواقع؟!

هل تكهُّنُ الوقوفِ على تخطيطات «البَنْتَاغون» وقرارات «مجلس الأمن» وطرائق تفكير «خُبَثَاء صُهْيون» مِن مُهِمَّات فقهِ الواقع؟!

هل قراءَةُ «النُّيوزْويكَ» والاطِّلاعُ على «التَّايم» وتصفُّح «دير شْبيغل» هي «قوائمُ» فقه الواقع؟!

هل الانشغالُ بتقليب الشبكات الفضائية من (أركان) فقه الواقع؟!

هل المطالبة بوجود «الديمقراطية» وتطبيق «الحقوق الإنسانية» (!) مِن (متمِّمات) فقه الواقع؟!

سُبحان الله!

أسماءٌ... صُورٌ... أفكارٌ... اصطلاحاتٌ... خُطَط... وقائِع... أحداث... تطوّرات... تَصَوُّرات...

ثم ماذا ؟!

هل إذا (غرِقْنا) في بحار التيِّهِ (اللامنتهيةِ) -هذه- نكونُ مِن بُناة «فقه الواقع»؟

هل إذا خُضْنا (غِمار) (لعبة الأمم) -هذه- نكونُ قد وَقَفْنا على أعتابِ «فقه الواقع»؟!

هل إذا (حَشَرْنا) ألْسنتَنا في (أبْواقِ) السَّاسةِ العالَميِّين نكونُ قد فَقِهْنا «الواقع» الذي يُراد لَنَا، ويُكادُ فيه بنا؟!

هذه (الصُّور) كلُّها (ظِلالُ) شخصٍ واحدٍ!

وهذه (الأسماءُ) جميعُها (مظاهرُ) لِمُسَمّىً واحدٍ!

وهذه (الأصواتُ) كلُّها (أصْداءُ) لـ (ناعقٍ) واحدٍ!

وهذه (المُخَطَّطات) جميعُها (عُكوسُ) رأْيٍ واحدٍ!

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ . أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا

عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ .

هذا هو النَّهجُ... وهذا هو الصِّراط... وهذه هي علاماتُ الرُّشْد والسَّداد.

﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ .

وعليه؛ فإنَّ النصيحةَ الصادقةَ التي تُوَجَّهُ لِكُلِّ الدُّعاة الإسلاميِّين على اختلاف طرائقهم وتوجُّهاتهم، هي «ألاَّ تستغرِقَهم الأحداثُ الجاريةُ، وألاَّ ينغمِسوا فيها، وفي المناوراتِ الحِزبيّة والسياسيّة، فإنّ لهم حقلاً آخرَ أوسعَ، وأبعدَ مدىً، وإنْ كان بطيئاً طويلَ الأمَدِ، وهو حقلُ البَعْثِ الإسلاميِّ للعقيدةِ، وللقِيَمِ، وللأخلاقِ، وللتقاليد الإسلاميّة [الشرعية] في صُلْب المجتمعات، حتى يأذَنَ الله -بالجُهدْ الطويل والصَّبْر- بقيام النظام الإسلاميِّ»(١).

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ .

(١) «لماذا أعدموني» (ص٧٠)!!

(٦)

مَحَاذِيرُ غَلَطِ فهمِ

(فقهِ الواقع)

إنَّ الغَلَطَ في فَهْمِ «فقه الواقع» ومعرفةِ حقيقتِهِ ومُقَوِّماته يُوَلِّدُ أخطاراً شنيعة، وَيُنْشِيءُ أخطاءً فظيعة، أذكُرُ منها- لا على سبيلِ التتبُّع- ألواناً:

أوّلاً: التصوُّفُ العَصْريُّ:

وذلك بتقسيم (الدِّينِ) وعُلمائِهِ، والشَّرْعِ وفُقَهائِهِ إلى: «فُقَهاءِ واقع» (!) و «فُقَهاء شَرْعٍ»!!

وهذا (التقسيم) «مِن أخطرِ الأمور الّتي أفْرَزَتْها (الحِزْبيّةُ) ودُعاتُها، حتى يَعْصِفُوا بالأمّةِ ويعزلوها عَن عُلَمائها الحقيقيِّين: عُلَماء الشريعة.

وهذا الاصطلاحُ قريبُ الشَّبَهِ -جدّاً- مِن اصطلاحِ الصوفيّة: عالم بالحقيقةِ! وعالم بالشريعة! من وُجوهٍ: مِنها الحيلولةُ بين الناسِ وبين عُلماءِ الشريعة، وادِّعاءُ علمٍ لم يَبْلُغْهُ عُلماءُ الشريعةَ، ولم يَقِفُوا عليه!

وما هي إلاّ إلهاماتُ (الحَرَكيِّين) واستشعاراتُهم! وما تفتّقُ به أذهانُهم مِن تَنْظيراتٍ، وتَصَوُّراتٍ، ونَظَراتٍ (مُسْتَقْبَليّةٍ) تَحارُ عقولُ الأتْباعِ دونَ الوصولِ إليها، فلا يبقى إلاّ التسليمُ!!

لم يَجِدِ المُتَصوِّفةُ بُدّاً مِن اتِّباعِ هذا الطريقِ؛ لِفَصْلِ الناس عن الكتاب والسُّنَّة، وعَقْدِ الوِثاقِ على عقولِهِم، والتمتُّعِ بِمُلْكِيَّتِها وتَوْجيهِها!»[1]!

عُلماء حقيقة... عُلماء شريعة!

عُلماء (واقع)... عُلماء شَرْع!!

فقه بدويّ... وفقه عصرّي!!!

وهذا هو- في حقيقتهِ- الاصطلاحُ «العصرانيُّ» الغَرْبيُّ الجديدُ نفسُهُ، لكنْ بِلَبُوسٍ آخَرَ: تقدميُّونَ... رجعيُّون!!

ثم ماذا؟!

سَلْخٌ للنَّاس عن أصالَتِهِم، واجتثاثٌ لهم مِن جُذورِهم!

هذا مَحْذورٌ ذو شُرور، (نخشى) أن يُصبحَ (واقعيّاً) يُفْرِزُهُ الفقهُ الأعوجُ للواقع!

---

(١) «الطليعة في براءة أهل السُّنَّة» (ص٣٢) للعُتَيبي -بتصرُّف-.

وهذا أمرٌ -لا شكّ- باقع!

ثانياً: التقليد بثوبه الجديد:

كَتَبَ إليَّ أحَدُ الإخوةِ الجزائريِّين السَّلفيِّين خِطَاباً يَذْكُرُ فيه بعضَ صُورِ الخلاف بين الدُّعاةِ هناك، ومَا نَتَجَ عن (افْتِرَاقِهِم) مِن (سَوَالب) و (مَحَاذير)!

قال:

«وتعلمون ما نَتَجَ عن التحزُّب مِن الفُرقةِ، وتَنكُّبِ طريقِ العُلَماءِ، وسَبِّهم، والردِّ على دُعاةِ السُّنَّةِ الذين لم يتحزَّبوا!

والمساكينُ (!) لا دليلَ مَعَهم سوى مقولةٍ أصبحتْ صَنماً عندنا، وهي قولُهم: «أنتَ أعلم مِنْ (فُلان)؟»! وإذا ناقَشْتَ أحدَهُمْ، وعَرَّفْتَه بالمنهج النبويِّ يصيحُ في وَجْهِكَ قائلاً: «هل هذا أمرٌ لا يعرفُهُ (فُلان) وعلمته أنت؟»!

فلمّا كانت هذه حالتنا أمعنتُ النَّظَر في أسبابها، فوجدتُها الجَهْلَ بأحكامِ الله - تعالى - . . .».

هذا أهَمُّ ما جاء في خطابِ الأخِ الجزائريِّ -وفّقه المولى-.

وأنت ترى مِن خلالِ كلماتِهِ الأسفَ الظاهرَ على حالِ هؤلاءِ المُقَلِّدين العَصْريِّين (!) الَّذين يزعُمون بألسِنتهم نَبْذَ التقليد، لكنَّ أحوالهم (تنطِقُ) بأنَّهم غارقون فيه!!

وهُمْ -في هذا وذاك- يُطَبِّقون بفِعالهم طريقةَ (الشيخ والمُريد)، ولكنْ فيمَن لا يُسَلِّمُ له -غالباً- بمشيخةِ (المُريدين) - على فَرْض قَبولها أو الرِّضى بها!-.

وهذه (الصُّورة) تتكرَّر في سائر الأقطار، ولكن بطرائقَ مُتفاوتة، وبشخصيّات متباينة!

ويجمعُها -جميعاً- التربيةُ (العمياءُ) على قَبول قولِ «فقيه الواقع»! ورَدِّ قَوْلِ «فقيه الشرع»!

.. هكذا .. مِن غير قَيْدٍ ولا شَرْطٍ!!

وقَدْ (غُرِسَتْ) أفكارٌ في رؤوس (هؤلاء) مَفادُها أنَّ «فُقهاء الشرع» جميعاً، هم على طريقةِ (أُسطورة) ذاك الخطيبِ الدَّاعي للعُثمانيِّين على مشارف القرن الحادي والعِشرين!!

فهؤلاءِ (المشايخُ) غارقون بين (الكُتُب)، مُنْغَلِقونَ على (أنْفُسِهم)، تحبسُهم عن (الواقع) جُدرانُ (مكتباتِهم)، و(أوراق) مُؤَلَّفاتِهِم!!

فلا يفقهونَ (سياسةً) ولا يعلمون (واقعاً)!!

أمّا أولئك (الواقِعيُّون)[1]: فهم يَتَتَبَّعونَ الـ(سْي. إنْ. إن)! ويقرؤون الـ(غارديان)! ويحرصونَ على جَمْع (القُصاصات) واقتناء (المقالات) وقراءة (المُذَكَّرات) وتتبُّع (التَحليلات)!

فأين أولئك مِن هؤلاء!

وهذا -تالله- عينُ البلاء!!

إنّه الغِرَّةُ المُوديةُ بالعقولِ إلى الهاويةِ بعيداً عن الشَّرْعِ بِضَوابطِهِ وقواعدِهِ!

وعُلَماؤنا... وفُقَهاؤنا... هم في الحقيقةِ (صُنَّاعُ) مَجْدِ الأُمَّةِ، و(بُناة) عِزِّ الأجيال.

ثالثاً: الخَلْطُ بين الخُطَباءِ والعُلَماءِ:

وهو خَلْطٌ قبيحٌ يُوصِلُ إلى قَبول الأحكام الشرعيّة مِمّن هو دونَ أهليةِ ذلك.

إذ يصعدُ الخطيبُ (الواقعي) -بعد سماع (نشرةِ أخبار) أو قراءة (مجلّة) أو النَّظَر في (صحيفةٍ) أوَ (تِلْفاز)- إلى

(١) انظر في مصطلح (الواقعية) عند الغربيّين كتابَ «منهج التربية الإسلامية» (١/١٤٨)!!

المِنْبَرِ يُرعِدُ ويُبْرِقُ، ويُرْغي ويُزْبِد، (مُلَخِّصاً) قراءاتِهِ وسماعاتِهِ بـ (مُوجزٍ) لأهمّ (الأنباء)!

وهذا ما يُوافقُ (حماسةَ) الشباب، وهو ما (يُداعبُ) عواطفَ المُتَوَقِّدين نشاطاً وَحَمِيَّةً وغَيْرةً!

ولكنْ: ما هكذا (تُفَرَّغ) العواطف! وما هكذا (تُعَبَّأُ) الحماسةُ! وما هكذا تكونُ (الغَيْرَة)!

فيَنْتُجُ عن هذا (الخَلْط) أن يصيرَ هذا (الخطيبُ) في أذهان أولئك الشباب (العالِمَ) الذي لا يُبارى؛ (لِطَلاَقهِ) لسانهِ، و(حَلاَوةِ) بَيَانِهِ، و(حُسْنِ) تحليلاتِهِ، وصَوَابِ (توقُّعاتِهِ) !!!

وهو في الحقيقةِ (خطيبٌ) ليس إلاّ! أو قاصٌّ يواري بشيءِ من التَّفَيْهُق نقصَ علمهِ وفقههِ!!

وأمَّا ذلك (العالمُ) وريثُ الأنبياءِ -الَّذي سَلَخَ مِن عُمرِهِ سَنَواتٍ طوالاً درسَ فيها الكتابَ والسنةَ، ووعَى أحكامَهما، وعَرَفَ مدلولاتِهما- فإنَّه يُصْبِحُ (معزولاً) عن الشَّبابِ، (بتُهمة) البُعْدِ عن (الواقع)!!

وهذا باطِلٌ ما له مِن دافِعٍ!

رابعاً: رَبْطُ النَّاسِ بغَيْرِ الأكفياءِ:

وهذه نتيجةٌ حَتْميَّةٌ لذلك الخَلْط القبيح الَّذي قدَّمنا ذِكرَه والإشارةَ إليهِ.

ومُؤدَّى ذلك شَرٌّ عظيمٌ، وخَطَرٌ جسيمٌ يجعلُ (الأتباعَ) «يهابون التعامُلَ مَعَ ظاهرِ الكتاب والسُّنَّة -كما كان السَّلَفُ- ويُعَوِّلونَ على (الفَيْض الإلهاميِّ) لعالِم (الحَرَكَة) و(فقيه الواقع)، كما يهابُ الصوفيُّ الطُّرُقيُّ ظاهرَ الكتابِ والسُّنَّةِ، مُعَوِّلاً على عُلَماءِ (الحقيقةِ) في فَهْمِ دينِهِ، مخافةَ الانحرافِ، زَعَموا!!

فَيُحال -حينئذٍ- بين النَّاسِ والاتِّصال بعُلَماء الكتاب والسُّنَّةِ، والتعامُلِ مع ظاهرِ الشريعة، بطُرُق ووسائل مُحْدَثةٍ، تتلوَّنُ مَعَ تغيُّرِ الزمان»[(١)] . . .

وهذا عَيْنُ تَلْبيسِ الشَّيْطان.

خامساً: غَلَبَةُ الجانبِ السِّياسي (العصري) على الشَّرْع:

وهذا -أيضاً- نتيجةٌ (طبيعية) لحالِ مَن (ضَخَّم) أمرَ «فقه الواقع» بصورة (التوهُّم) التي شَرَحْناها من قبلُ.

(١) «الطليعة . . » (ص٣٣) -بتصرُّف- .

فترى أنّ الجانبَ السِّياسيَّ (العصرانيَّ) يأخُذُ مِن (الدعوة) مساحةً كبيرةً، وحَجْماً (ضَخْماً)، أوسعَ بكثيرٍ مِن الحَجْم الذي أعطاه الإسلامُ لهذا الجانب[1]، فيطغى هذا الجانبُ -(المَجْبُول) بمكر السَّاسةِ وخداع النِّفاق العَصْري- على جانب الدَّعوةِ إلى الله -سبحانَه- بصِدْقها، وفِطريّتها، وصفائها، ونقائها.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

سادساً: استلزامُ التقليل من أهميّة التَّوحيد والسُّنّة:

فإنَّه يُخشى على مَن (غَلَّبَ) على عقلِه بُحوث السياسةِ، ونَظَرِيّات (الحَرَكَة)، ففَقِهَ (الواقع) على غير (حقيقته): يُخشى على مِثلِ هذا أنْ (يجريَ) على لسانِه قولُ الجاهلين المُتجاهِلِين (!) الّذين يُواجهونَ دُعاةَ التوحيدِ وأهلَ السُّنَّةِ بقولِهم: «هذه قشور»! «اهتمُّوا باللّباب»!!

و(البعضُ) منهم (!) يقولُ: «لقد تجاوَزْنا العصرَ المكّيَ، (وتوقّفت) عبادةُ الأصنام؛ فكفاكم كلاماً عن

(١) قارن بـ «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل» (ص١٠٣-١٠٤) لفضيلة الأستاذ الشيخ ربيع بن هادي -حفظه الله تعالى-.

الحيض والنفاس، وما تُصَحَّحُ به عقائدُ الناس»!!

سُبحان الله! الدعوةُ إلى السُّنَّةِ: قشورٌ! إقامةُ التوحيد: قشورٌ!

وهل توقّفت الدعوة إلى التوحيد، والأحكام الشرّعية في أيِّ وقتٍ من حياةِ رسول الله ﷺ بدءاً وانتهاءاً؟!

فَلُبابُ دعوةِ (هؤلاءِ) -أجمعين-: (تمويهاتُ) الغربيِّين، و(تمحُّلات) السياسيِّين، و(نَظَرِيَّات) المُفَكِّرين، وأقلامُ (الأرأيْتِيِّين)!

وهذه قِسْمَةٌ ضيزى بكُلِّ يقين!!

سابعاً: الثقةُ بوسائل الإعلام الفاسدة[1]:

سواءٌ منها ما كان في الغَرْبِ أو الشَّرْقِ، وهذا يُنشىءُ (تَضْخيمَ) حالِهِم، و(تصديقَ) مقالِهِم!

وعُلماؤنا -رحمهم الله- لم يَقْبَلوا خبرَ المسلم الصادق إذا لم يكُن عَدلاً وضابطاً، فكيف إذا كان كافراً مُعادياً!!

وينعكسُ هذا -سَلْباً- على العلم الشرعِيِّ بتقليلِ الثقةِ به!!

---

(١) انظر ما تقدّم (ص٤٧).

وله (انعكاسٌ) آخَرُ أدْهى وأظْلمُ؛ وذلك ببَعْثِ (الرُّعب) في نفوسِ المُسْلمين، و(الرَّهبة) في قلوبهم تُجاه أعدائهم.

فوسائلُهم و(أدواتُهم) تُضَخِّمُ أمرَ (العقليّةِ) الغربيّةِ، وتُفَخِّم شأْنَ (عتادِها) وأسلحتِها، وتُعَظِّم حالَ (برامِجِها) و(تخطيطاتِها)! وهي -بالتالي- تجعلُ كلَّ حَدَثٍ- أو حادثٍ- صَغُر أم كَبِرَ- من صُنْعِها أو تدبيرها!!

فهذا كلُّه يُولِّدُ -بل يَزيدُ- الوَهَنَ.. والضَّعْفَ.. والخضوعَ لهذه القُوَّة الَّتي (لا تُقْهَرُ)!!

وفي الحقيقةِ أنَّ كثيراً مِن ذلك إنّما هو من باب (الدِّعايةِ) و (الإعلام) إرْهَاباً للأعداء (!)، وكَبْتاً لـ (الخُلَطاء)!!

وهذا -كُلّه- قَلْبٌ لحقيقةِ تلك المُعجزةِ الربّانيّةِ التي آتاها الله -سُبحانه- نبيَّه ﷺ بشارةً للمُؤمنين، ونِذارةً للكافرين: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ»[1].

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٦٩٩٨) ومسلم (٥٢٣) عن أبي هُريرة.

ثامناً: عَدَمُ التَّمْييز بين الأولويّات، والتساهُلُ في الشرعيّات:

إذ إنَّ مِن أهم شُروطِ الدعوةِ الصحيحةِ «البداءةَ بالأهَمِّ فالأَهَمِّ: وذلك بأن يَدْعوا -أَوّلاً- إلى إصلاحِ العقيدة بالأمرِ بإخلاصِ العبادة لله، والنَّهْيِ عن الشِّرْك، ثم الأمر بإقامةِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، وفعل الواجباتِ، وتَرْكِ المُحَرّمات، كما هي طريقةُ الرسل جميعاً، كما قال -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، وقال- تعالى-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وغير ذلك مِن الآياتِ.

ولَمَّا بَعَثَ النبيُّ ﷺ مُعاذاً إلى اليَمَن، قال له: «إنّك تأتي قَوْماً مِن أهلِ الكتاب، فَلْيَكُنْ أولَ مَا تَدْعُوهم إليه شهادةُ أنْ لا إله إلاّ الله، فإنْ هم أجابوك لذلك فأَعْلِمْهُمْ أنَّ الله افترضَ عليهم خمسَ صلواتٍ في اليوم والليلةِ...»[1] الحديث.

---

(١) مِن مقدمة الشيخ صالح الفوزان لكتاب «منهج الأنبياء...» (ص٥).
والحديث: مُتّفَقٌ عليهِ. =

وفي طريقتهِ وسيرتهِ ﷺ في الدعوةِ خيرُ قُدْوةٍ وأكملُ منهجٍ؛ حيثُ مَكَثَ ﷺ في مكةَ عشرَ سنواتٍ يدعو الناسَ إلى التوحيد، وينهاهمْ عن الشِّرك قبل أن يأمُرَهم بالصلاةِ والزكاةِ والصومِ والحَجِّ، وقبلَ أن ينهاهُم عن الرِّبا، والزِّنا، والسرقةِ، وقتْلِ النُّفوسِ بغيرِ حقٍّ»[1].

وما زال يُحَذِّرُ من الشركِ- بصُوَره وألوانهِ- إلى حين وفاتهِ، وحوله صفوةُ الصفوةِ من خِيَار أصحابهِ.

فهذه - إذاً- هي «غايةُ الدينِ الحقيقيّةُ، والغايةُ مِنْ خَلْقِ الجنِّ والإنسِ، والغايةُ مِن بعثةِ الرسلِ وإنزال الكُتُبِ»[2].

فَجَهَلَةُ (الواقع) تَعْميهم حماستُهم (المحمومة) عن الإدراكِ (الحقيقيِّ) لهذه الأولويّة، لا أقول: «بأقوالهم»؛ فإنَّ (منهم) مَن يُرَدِّدون مَعَنا: أنَّ التوحيد أهمُّ المُهمَّات! لكنَّ «أحوالَهم» و«أفعالهم» تُنادي بالنُّكران على تلك (الشِّعارات) الزَّائفةِ الَّتي يُرادُ مِنْها الالتقاء في (منتصف الطريق) مَعَ بعضِ الجماعات الدعويّة المنحرفة عن منهج الأنبياء في الدعوةِ إلى الله - سبحانه -!

(١) من مقدمة الشيخ صالح الفوزان لكتاب «منهج الأنبياء...» (ص٥).

(٢) «منهج الأنبياء» (ص١٠٨) للشيخ ربيع بن هادي.

ومِن أمثلةِ (عَدَم التَّمييز) (الواقعيّة): لَهَجُ كثيرٍ مِن دُعاةِ «فقه الواقع» و(أشباهِهم) بالدعوةِ إلى (الحاكميَّة)!

ويريدون بـ (الحاكميّة): إقامةَ الدولةِ الإسلاميّةِ!

ولقد أدّاهم (لَهَجُهم) و (انشغالُهم) إلى فَوْتِ إدراكِ «أنّ مُوجباتِ الاهتمامِ بالدعوةِ إلى التوحيدِ قائمةٌ (اليومَ) على أشُدِّها كما هي في عُهود النبوّاتِ كُلِّها بِمَنْ فيهم محمدٌ ﷺ أو أشدُّ.

فهل يستطيعُ أن يُنكر ذلك عاقلٌ منصفٌ؟!

وهل يقولُ - أو يعتقدُ -مسلمٌ واعٍ أنَّ المسلمين اليومَ مثلُ المسلمين في القُرونِ المُفَضَّلَة لاَ يستمدُّون عقائدَهم وعباداتِهِم إلاّ مِن الكتابِ والسُّنَّةِ.

إنَّ الدعوةَ إلى الحاكميّةِ- بمفهومها الشرعيِّ الصحيح-[1] وتَطْبيقَها: أمرٌ مِهمٌّ ويُهِمُّ كُلَّ مسلمٍ يفهمُ الإسلامَ -إذا رُوعِيَتْ شروطُها-، وكُلُّ ما جاءَ بِهِ رسولُ الله ﷺ مهمٌّ وعظيمٌ.

(١) انظر -لزاماً- كتابي «صيحة نذير. . .» (ص٨٠-٩٥).

لكنَّنا نتساءَلُ: هل الدعوةُ إلى الحاكميّة تستلزمُ الإهمالَ أو التقصير في أصلٍ مِن أصول الإسلام؟

وهل تحكيمُ شرع الله- سبحانه- خاصٌّ بالراعي دون الرعيّةِ؟!

الجوابُ: لا.

«إنَّ حاكميّة الله يجبُ أن تبدأ مِن أعظم شيءٍ في الإسلام؛ ألا وهو الاعتقادُ في الله، وفي أسماءِ جَلالِهِ، وصفاتِ كمالِهِ، كما تعرَّف الله إلينا بها في كتابهِ العظيم، وكما عَلَّمَنا نبيُّنا الكريمُ ﷺ، لِتَمْتَلِىءَ قلوبُنا بها نوراً وإيماناً، ويقيناً وإعظاماً وإجلالاً»[1].

وأولويّةُ الدعوةِ للعقيدةِ يجبُ أن تكون مُرافقةً لمراحلِ الدعوةِ كافّةً؛ لأهمِّيتِها في بناءِ النُّفوس، وموقِعها في إصلاحِ العقولِ، دونَ تَغْليبٍ (للسِّياسات)- أَو الحماسات- عليها، أو تقديمٍ لـ (العواطف) عليها! ولو بلسانِ الحال -كما ذَكَرْنا- دونَ المَقَالِ!!

(١) «منهج الأنبياء» (ص١٣٠).

تاسعاً: الغُلُوُّ:

وهـو (الثمـرةُ) الطبيعيّـة لـ (شجـرة) خَلْـطِ (الأوراق) واختلاط (الأَوْلَوِيّات)!

فترى (النِّقْمة) الظاهرة (المُتَنامِيَة) على الأوضاعِ الحياتية للمجتمعات (الإسلامية) ذات النُّظُم (الجاهلية)! وحُقَّ لهذه النِّقْمَـةِ أَنْ تكـونَ: بَـرَاءَةً مِـن المعـاصـي، وَانْخِـلاعـاً مِـن أمـرِ الجاهليّةِ، ولكنّ (استفحالَها) وعَدَمَ ضَبْطِها يُوَلِّدُ الوَصْمَةَ بالتكفير لهذهِ المُجتمعات؛ إمّا مِن حيثُ الحُكّام (غالباً)، وإمّا مِن حيثُ المحكومون نتيجةً واسترسالاً!! وهذا غُلُوٌّ لا لَعاً له!

والله ربُّنا -سُبحانَه- يُريدُنا (وَسَطاً) بين المُتناقضات، و(عَدْلاً) بين المُتباينات، دون مُيُوعةٍ ولا تعنُّتٍ، ومِن غير تسيُّبٍ ولا تنطُّعٍ!

وهذا (الغُلُوُّ) مُوَلِّدٌ للعَجَلَةِ والاستعجالِ[1]، وهي مِن أعظمِ (أمراضِ) الدُّعاةِ في هذا العَصْر، ومَن نَظَرَ... اعْتبَرَ!!

وعُلماؤنا يقولون: «مَن تعجَّل الشيءَ قبلَ أوانِهِ عُوقِبَ بحرمانِهِ»!

(١) وانظر ما سيأتي (ص: ٩٦-١٠١) حول أسباب إبطاءِ النصر.

عاشراً: الرّضا بالديمقراطيّة وأساليبها الرّديّة:

وهذا مِن أخْطَر ما (يُتَوَقَّع) حُصولُهُ إذا ما وَلَجَ بعضُ (الدُّعاة) «فقهَ الواقع» مُختلطةً أوراقُهم، مبعثرةً أولويّاتُهم!

إذ هم بِفِقْهِهِم (هذا) لا يستطيعون الانفكاك عن (الواقع) الذي يُراد مِنْ خِلالِهِ الكَيْدُ بهم، وتشتيتُ كلمتهم، وتفريقُ جموعِهِم، وسَلْخُهم عن مناهِجِهم الوفيَّة بأساليب (أُولئك) الغَوِيّة!

ويُلَبِّس الشياطينُ -من الإنس أو الجنّ- على عُقول هؤلاء (الدُّعاة) قائلين: «إذا لم تُشاركوا أنتُم (أيها المسلمون) في (أُطُرِ) الديمقراطيّة و(صُوَرِها): سَيُشارِكُ غيرُكم مِن الشيوعيِّين والعلمانيين والمُلْحِدين و. . . »!!

لا، فَلْيُشارِكْ هؤلاء المُنحرفون الضالُّون! فهذا أهونُ -شَرْعاً وواقِعاً- مِن مُشاركتِنا!! وهذا مِن وجهين:

الأول: أنّ في هذا ارتضاءً للديمقراطيّة، ودُعاتِها، وأربابها، وأساليبها، ومناهِجِها؛ وذلك بالمشاركةِ فيها، والولوجِ ضمنَ دائرتها، والاستظلالِ بظلِّها!!

وهذا يجعلُ جماهيرَ الناسِ يأخُذُونَ السُّمْعَةَ (الطيِّبة) عن هؤلاء (المنحرفين) الَّذين سَمَحوا للمُسلمين (!) بالدُّخولِ في البرلمانِ، أو (المشاركة) في الحُكْم!! فيقولون: «إذا شاركتموهم... وقاسمتموهم: فلماذا تُنْكِرون عليهم؟!».

وهذا مُوجبٌ لإيجاد التناقُضِ بين الفِعال والمقالِ؛ إذ «إنَّنا نقولُ للجماهير في كُلِّ مناسبةٍ: إنَّ الحُكْمَ بغير ما أنزل الله باطلٌ، وإنَّه لا شرعيّةَ للحُكم الذي لا يحكُمُ بشريعة الله... ثم تنظُرُ الجماهيرُ فترانا قد شاركْنا فيما نَدْعُوها هي لِعَدَم المشاركة فيه! فكيف تكون النتيجة؟!»[1].

ثانياً: «تمييعُ قضيّة الإسلاميِّين في نَظَر الجماهير، وزوالُ تفرُّدِهِم وتميُّزهم الذي كان لهم يومَ أن كانوا يَقِفُون مُتَمَيِّزِينَ في الساحة، لا يُشاركون في جاهلية السياسةِ مِن حولِهم، ويعرفُ الناسُ عنهم أنَّهم أصحابُ قضيّةٍ أعلى وأشرفُ وأعظمُ مِن كُلِّ التشكيلات السياسيّة الأخرى التي تريدُ الحياةَ الدنيا وحدَها... وتتصارَعُ وتتكالبُ على متاعِ الأرضِ... ولا تعرفُ في سياسَتِها الأخلاقَ الإسلاميّةَ... ولاَ المعانيَ الإسلاميّةَ، فَضْلاً عن مُناداتها بالشِّعاراتِ الجاهليّةِ، وإعْراضِها عن تحكيم شريعة الله.

---

(١) «واقعنا المعاصر» (ص٤٦٤)!!.

ولم يحدُثْ مرّةً واحدةً -في لُعبة الدبلوماسيّة- أنِ استطاع المُستضعَفون أن يُديروا دَفَّةَ الأمور مِن داخل التنظيمَات السياسيّة التي يُريدُها أعداؤهم؛ لأنَّ «التُّرْس» الواحد لا يتحكّم في دَوَرانِ العَجَلةِ، ولكنَّ العَجَلَةَ الدائرةَ هي التي تتحكّم في «التُّروس»!

وما [قد] يَحْدُثُ مِن «إصلاحات» جُزئيّة عارضة في بعض نواحي الحياة -على يد «الإسلاميّين»-: لا تُطيقُه الجاهليّةُ ولا تصبرُ عليه، وسُرْعانَ ما تَمحوهُ مَحواً وتُبْطِلُ آثارَه.

وتَظَلُّ الآثارُ السيّئةُ التي يُنْشِئُها (تَمْييع) القضيّة باقيةً لا تزولُ، وشرُّها أكبر بكثيرٍ مِن النفع الجُزئي الذي يَتَحَقَّقُ بهذه المشاركة»[1].

قلت:

فتلك عَشَرةٌ كامِلة... ناصِبةٌ عامِلة!!

□□□□□

---

(١) «واقعنا المعاصر» !!.

(٧)

وَاقِعُ الفِقْهِ
في (فِقْهِ الوَاقِعِ)

وذلك قائمٌ على أصولٍ أربعةٍ:

أولاً: قاعدةُ الدعوةِ إلى الله:

«امْتَازَتْ دعوةُ الأنبياء وجهودُهم بتجرُّدِها مِن التفكير في المَنَافِعِ الماديّةِ والثَّمَرَاتِ العاجلةِ، فكانوا لا يبتغونَ بدعوتِهم وجهادِهم إلاّ وجهَ الله، وامتثالَ أوامرِه، وتأديةَ رسالتِهِ.

تجرَّدَتْ عقولُهم وأفكارُهُم مِن العَمَلِ للدُّنيا، ونَيْلِ الجاهِ، وكَسْبِ القُوَّةِ لأسرتِهِم أو أَتْباعهم، والحُصولِ على الحكومةِ، حتّى لم يَخْطُر ذلك ببال أصحابِهِم وأتْباعِهِم.

وكانت هذه الحكومةُ التي قامَتْ لهم في وقتِها، والقُوَّةُ التي حَصَلَتْ لهم في دَوْرِها لم تَكُنْ إلاّ جائزةً مِن الله، ووسيلةً لِلْوُصولِ إلى أهدافِ الدينِ، وتنفيذِ أحكامِهِ، وتغيير المجتمع، وتوجيه الحياة، كما قال الله -تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟

بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾.

ولم تكُن الحكومةُ -قطُّ- غايةً من غاياتِهم، أو هَدَفاً مِن أهْدافِهم، أو حديثاً مِن أحاديثهم، أو حُلماً مِن أحلامِهِم؛ إنّما كانت نتيجةً طبيعيّةً للدعوةِ والجهاد، كالثمرةِ الّتي هي نتيجةٌ طبيعيّةٌ لِنُموِّ الشجرةِ وقُوّةِ إثْمارِها.

ولقد بَعَثَ الله -سبحانه- نبيَّه محمداً ﷺ؛ فَدَعا الناسَ إلى الإسلام، فالتفَّ حولَه ﴿فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدًى﴾، وكان هؤلاء الفِتْيانُ هَدَفَ كُلِّ قُوّةٍ وظُلْمٍ واضطِهادٍ وبلاءٍ وعذاب، وقد قيل لهم -مِن قَبْلُ-: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، فَصَمَدوا لِكُلِّ ما وَقَعَ لهم، وثَبَتُوا كالجبالِ، وقالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ﴾؛ حتّى أذِنَ الله في الهجرةِ، ولم تزَلِ الدعوةُ تَشُقُّ طريقَها، وتُؤْتي أُكُلَها، حتّى قضى الله أن يَحْكُمَ رجالُها في العالَم، ويُقيموا القِسْطَ، ويُخرِجوا الناسَ مِن الظُّلُمات إلى النُّورِ، ومِن عبادة العباد إلى عبادة الله وحدَه، ومِن ضيق الدُّنيا إلى سَعَتِها، فقد عَلِمَ أنَّهم إذا تَوَلَّوْا وسادُوا: ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾.

وهكذا جاءَت الدعوةُ بالحكومةِ [لا العكس]؛ كما تأتي الأمطارُ بالخَصْبِ والزَّرْع، وكما تأتي الأشجارُ بالفاكِهةِ والثَّمَر؛ فلم تكُن هذه الحَكومةُ إلاّ ثمرةً مِن ثَمَرات هذه الدعوةِ الإسلامية، ولم تكُن هذه العِزَّةُ والقُوَّةُ إلاّ نتيجةَ ذلك العَذابِ الَّذي تحمَّلوه مِن قُريشٍ وغيرهم، وذلك الهَوانِ الذي لَقَوْهُ في مكّةَ وغيرها.

وفرقٌ كبيرٌ بين الغايةِ التي تُقْصدُ، والنتيجةِ الّتي تظهرُ:

ويظهرُ هذا الفرقُ في نفسيّةِ العاملِ والسَّاعي: فالَّذي يقصِدُ الحكومةَ يَتَوانى ويقْعُدُ إذا لَم يَنَلْها أو انْقطَعَ أمَلُهُ فيها، ويشتغلُ بها عن الدعوةِ، ويطغى إذا نالَها.

وَخَطَرٌ على كُلِّ جماعةٍ تتكوّن عقليّتُها بحُبِّ الحكومةِ والسَّعْي لها أنْ تَقْعُدَ عن الجهاد في سبيلِ الدعوةِ أو تنحرفَ وتزيغ عن قَصْدها، لأنَّ أساليبَ الوصولَ إلى الحكومةِ تُخالِفُ أساليبَ الدعوةِ[1]»!.

وواقعُ دُعاة (السياسةِ) مِن أَدَلِّ دليلٍ على ذلك!!

---

(١) من أول هذا المبحث إلى هنا اقتباسٌ من رسالة «أريد أن أتحدَّث إلى الإخوان» (ص٢٠-٢٢) لأبي الحسن النَّدْويّ!!

وهذا كُلُّه يُظْهِرُ بجلاء «أنَّ رِضا الله -تعالى- في الدُّنيا والآخِرَةِ، والفوزَ بالجنَّةِ، والنجاةَ مِن النَّارِ، وموافقةَ الكتابِ والسُّنَّةِ هي الغايةُ، وكُلُّ ما عَدَاها مِن جُهودٍ ومُحاولات، وجماعاتٍ، وقياداتٍ، ونُظُم، وحكومات: وسائلُ تَخْضَعُ للغاية، وتُستخدم لصالحِ الإسلام»[1]، فلا يجوز -ألبتّة- الخَلْطُ بين الوسائل والغاياتِ في مَسَائِلَ هي أغلى وأهمُّ المهمّات.

ثانياً: التأنِّي وعدم العجلة:

فواقعُ الفقهِ (الشرعيِّ) -بحقيقتهِ وأصالتِهِ- يُنادي الدُّعاةَ إلى الله- سُبحانه- أن يتمسَّكوا تمسُّكاً قويّاً بكتابِ ربِّهم- جلَّ شَأنُهُ-، وسُنَّةِ نبيِّهِ ﷺ، مُهتَدِين في سَيْرِهم وسلوكهم بتلك (الثوابت) القرآنيّة، دونَ الانْخِداع أو الانْجِرارِ وراءَ (المتُغيِّرات) السِّياسيّة، أو (لُعبة الأمم) الدَوليّة!!

ولا آفة على مَنَ (اخْتَلَطَتْ) عليهِ أوراقُ (واقعِ الفقهِ) بأوراق (فقه الواقِع) أكبرُ مِن (العَجَلةِ)، وأشَدُّ مِن (الاستعجال)، فيدفعهم هذا إلى أن يصرخوا قائلين:

---

(١) «التَّفسير السياسي للإسلام» (ص١) للنَّدْويِّ!!

إلى متى هذا (الْوَاقعُ) الذي نَعيشُه بآلامِهِ، وظلامِهِ؟!

إلى متى سيبقى (الإسلامُ) بعيداً عن (الحُكْم) بين الناس؟!

إلى متى سيرتفعُ هذا الذُّلُّ الذي أصابَ (الإسلاميِّين) على (أَكتاف) (العِلمانيِّين) ومَن شاكَلَهم مِن الظَّلَمَةِ والمُجرمين!؟

إلى متى..؟! إلى متى؟!

..أسئلةٌ يدفعُ بعضُها بعضاً... واستفساراتٌ تتسابَقُ صدوراً ووروداً! مِن شبابٍ حائر يُريد (النَّصْرَ) للإسلام، و(المَجْدَ) للأمَّةِ!

لكنْ: هل ثَمَّةَ نَصْرٌ أو مَجْدٌ بغيرِ مقوِّماتٍ ودوافع؟!

هل ثَمَّةَ عِزٌّ أو رِفْعَةٌ بغيرِ نَهْجٍ قويم، وصراطٍ مستقيمٍ؟!

هل ثَمَّةَ فلاحٌ أو سؤدُدٌ بغير دعوةٍ دؤوبةٍ وتَغْييرٍ حقيقيٍّ؟!

إذا أَجَبْنَا بواقعٍ (حيٍّ) على هذه الأسئلةِ نرى الأجوبةَ (الحقيقيّة) لتلك الاستفسارات؛ (واقعاً) عمليّاً، وتطبيقاً (حياتياً)، وثماراً جانية، وقِطافاً (دانية)...

وهذا كُلُّه يُرشِدُنا إلى قاعدةٍ هامةٍ من قواعدِ فَهْمِ الدِّينِ والعَمَل بهِ، وهي قاعدةُ «قَصْر النَّظَر على الحالةِ الحاضرة التي نحنُ فيها»؛ دون التطلُّع والتشوُّفِ إلى أمرٍ نحنُ دونهُ (الآن) -مترتِّبٍ على (الحال) التي نَصِلُ إليها، ومبنيٍّ على (المَرْتبَةِ) التي (سنقفُ) عليها-:

قال العلاّمةُ السَّعْدي في «القواعد الحِسَان لِفَهْمِ القرآن» (ص١٣٦-١٣٨) شارحاً مُبيِّناً:

«وهذه القاعدةُ الجليلةُ دعا إليها القرآنُ في آياتٍ عديدة، وهي من أعظمِ ما يدلُّ على حكمةِ الله، ومن أعظمِ ما يُرَقِّي العالمين إلى كُلِّ خيرٍ دينيٍّ ودنيويٍّ:

فإنَّ العاملَ إذا اشْتَغَلَ بعملهِ الّذي هو وظيفةُ وقتِهِ، قَصَر فكرَه وظاهرَه وباطنَه عليه: فينجحَ ويتمَّ له الأمرُ بحسبِ حالهِ.

وإنْ تَشَوَّفَتْ نفسُهُ إلى أعمالٍ أخرى- لم يَحِنْ وقتُها بعد- شُغِلَ بها، ثم اسْتَبْعَد حصولَها، فَفَتَرَتْ عزيمتُهُ، وانْحَلَّتْ هِمَّتُهُ، وصار نظرُهُ إلى الأعمال الأخرى كليلاً يَنْقُصُ من إتْقانِ عملِهِ الحاضرِ وجَمعِ الهِمَّةِ عليه.

ثم إذا جاءت وظيفةُ العمل الآخرِ جاءَه وقد ضَعُفَتْ هِمَّتُهُ وقَلّ نشَاطهُ.

وربُّما كان الثاني مُتَوَقِّفاً على الأولِ في حصولِه أو تكميلِه، فَيَفُوتُ الأولُ والثاني، بخلافِ مَنْ جَمَعَ قَلْبَه وقالبَه على كُلِّ عملٍ في وقتِه؛ فإنّه إذا جاء العملُ الثاني يأتيهِ مُسْتَعِداً له بقوةٍ ونشاطٍ جديدين حَصَّلَهُما من نشاطِهِ وقُوّتِهِ في الأول، فيتلقّاه بشوقٍ وعزيمةٍ فَيُفْلح فيه ويَنجحُ، وهكذا هو- أبداً- مُتَجَدِّدُ القوى.

ومن هذا: قولُهُ- تعالى- مُصَرِّحاً بهذا المعنى في سورة النساء-: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾؛ فانْظُر كيف حالُهم الأولى وأمنيّتُهم وهم مأمورونَ بكَفِّ الأيدي، فلمّا لم يقبلوا موعظةَ الله، ضَعُفوا، فلما جاءهم العملُ الثاني ضعُفوا عنه كُلَّ الضَّعْفِ!

ونظير هذا ما عاتَب الله به أهلَ أُحُدٍ في قولِه- في سورة آل عمران-: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾.

وقد كَشَفَ هذا كُلَّ الكشفِ قولُه- تعالى- في سورةِ النساء: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ على أنَّ فيه تكميلاً لِلْعَمَلِ الأوّلِ، وتَثْبيتاً من الله، وتَمرُّناً على العَمَلِ الثاني.

ونظيرُهُ قولُهُ -تعالى- في سورة التوبةِ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

فالله أرشَد العِبادِ أنْ يكونوا أبناءَ وَقْتِهم، وأنْ يَقُوموا بالعَمَلِ الحاضرِ ووظيفتِهِ، ثُمَّ إذا جاءَ العَمَلُ الآخرُ صار وظيفةَ ذلك الوقتِ؛ فاجتمعتِ الهِمّةُ والعزيمةُ الصادقةُ عليه، وصار القيامُ بالعملِ الأولِ مُعيناً على الثاني.

وهذا المعنى في القرآنِ كثيرٌ».

قلتُ:

بهذا -وبهذا فقط- يصيرُ «فقه الواقع» واقعاً فقهياً تطبيقيّاً، لا مجرّد كلامٍ نَظَرِيٍّ، أوتَمنٍّ قلبيٍّ!

وفي الآياتِ الكريمةِ مِن سورة النِّساءِ- التي أشار إليها العَلاَّمةُ السَّعْديُّ -رحمه الله- أكبرُ عبرةٍ، وأعظمُ عِظةٍ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

ونحوُها آياتُ سورةِ البقرةِ -مِنْ قَبْلُ-:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فهذه آياتٌ جليلةٌ تُعَدُّ -أيضاً- مِن ثَوابت «فقه الواقع»[1]؛ فَمِن أجوائها نتحرّك... وعبرَ أصدائها ننطلقُ:

انظروا إلى المَلأ هؤلاء... «لَقَدْ اجْتَمَعوا إلى نبيٍّ لهم،

(١) انظر ما سبق (ص٣٢).

وطلبوا إليه أن يُعَيّن لهم ملِكاً يقاتلون تحت إمرتِهِ «في سبيل الله». وهذا التحديدُ منهم لطبيعةِ القتالِ، وأنّه في «سبيل الله» يَشي بانتفاضةِ العقيدةِ في قُلوبهم، ويَقَظةِ الإيمانِ في نفوسِهم، وشُعُورِهِم بأنّهم أهلُ دينٍ وعقيدةٍ وحَقٍّ، وأنّ أعداءَهم على ضلالةٍ وكُفْرٍ وباطلٍ؛ ووُضوحِ الطريق أمامَهم للجهادِ في سبيل الله.

وهذا الوضوحُ وهذا الحَسْمُ هو نِصْفُ الطريق إلى النصر.

فلا بُدّ للمؤمن أن يتَّضِحَ في حِسِّهِ أنه على الحَقِّ، وأنّ عَدُوَّهُ على الباطلِ؛ ولا بُدَّ أن يتجرَّد في حِسِّهِ الهدفُ.. في سبيل الله.. فلا يُغَشِّيهِ الغبشُ الذي لا يدري مَعَه إلى أين يسيرُ!

وقد أرادَ نبيُّهم أن يستوثِقَ من صِدْقِ عزيمتِهم، وثباتِ نيّتهم، وتَصْميمِهم على النُّهوضِ بالتَّبِعَةِ الثقيلةِ، وَجدِّهم فيما يَعْرِضُون عليه من الأمرِ.

قَالَ: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾.

ألا يُنْتَظَرُ أن تنْكُلوا عن القتال إنْ فُرِضَ عليكم؟ فأنْتُم الآنَ في سَعَةٍ من الأمرِ، فأمّا إذا استجبتُ لكُمْ، فتقرّر القتالُ عليكم، فتلك فريضةٌ- إذنْ- مكتوبةٌ؛ ولا سبيلَ بعدَها إلى النُّكولِ عنها . . .

إنّها الكلمةُ اللائقةُ بنبيٍّ، والتأكُّدُ اللائقُ بنبيٍّ، فما يجوزُ أن تكون كلماتُ الأنبياء وأوامرُهم موضعَ تردُّدٍ أو عَبَثٍ أو تَرَاخٍ.

وهنا ارتفعتْ دَرَجَةُ الحماسةِ والفَوْرَةِ؛ وذَكَر المَلأُ أنَّ هناك من الأسبابِ الحافزةِ للقتالِ في سبيل الله ما يَجْعَلُ القتالَ هو الأمرَ المُتَعَيَّنَ الذي لا تردُّدَ فيه:

﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾.

وَنجدُ أنّ الأمرَ واضحٌ في حِسِّهم، مُقَرَّرٌ في نُفوسِهم. . . إنَّ أعداءَهم أعداءٌ لله ولدينِ الله، وقد أَخْرَجُوهم من ديارِهم وَسَبْوا أبناءَهم؛ فقتالُهم واجبٌ؛ والطريقُ الواحدةُ التي أمامَهم هي القتالُ؛ ولا ضرورةَ إلى المراجعةِ في هذه العزيمةِ أو الجدالِ. . .

ولكنَّ هذه الحماسةَ الفائرة في ساعةِ الرخاءِ لم تَدُم..
﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

وهُنا نَطَّلِعُ على سِمَةٍ خاصّةٍ في نَقْضِ العَهْدِ، والنّكث بالوَعْدِ، والتفلُّت من الطاعةِ، والنكوص عن التكليف، وتفرُّقِ الكلمةِ، والتَّوَلِّي عن الحَقِّ البيِّن..

وهذه -كذلك- سِمَةُ كُلِّ جماعةٍ لا تَنْضُجُ تربيتُها الإيمانيةُ؛ فهي سمةٌ بشريةٌ عامةٌ لا تُغَيِّرُ منها إلاّ التربيةُ الإيمانيةُ العاليةُ الطويلةُ الأمدِ العميقةُ التأثيرِ.

وهي -مِنْ ثَمّ- سِمَةٌ ينبغي للقيادة أن تكونَ منها على حَذَرٍ، وأن تَحْسِبَ حسابها في الطريقِ الوَعْرِ، كيْ لا تُفَاجَأَ بها، فيتعاظَمَها الأمرُ! فهي مُتُوَقَّعَةٌ من الجماعاتِ البشريةِ التي لم تخلُص مِنَ الأَوْشاب، ولم تُصْهَر، ولم تُطَهَّر مِن هذِهِ العَقَابيلِ.

والتعقيبُ على هذا التَّوَلِّي:
﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وهو يَشي بالاستنكارِ؛ وَوَصْم الكثرةِ التي تَوَلَّتْ عن هذه الفريضةِ -بعد طَلَبها- وقبلَ أَن تُواجِهَ الجهادَ مواجهةً

عَمَلِيّةً... وَصَمَها بالظُّلم، فهي ظالمةٌ لنفسها، وظالمةٌ لنبيِّها، وظالمةٌ للحَقِّ الذي خَذَلَتْه وهي تعرفُ أنه الحقُّ، ثم تتخلّى عنه للمُبْطلين!»[1].

هذا هو الدرسُ بآماله وآلامِهِ، يُنادي (الدُّعاة)، يستصرخُ (الشَّباب)... يُحَرِّكُ النفوسَ، يُدَهْدِهُ (العقول)، لِتقرير قاعدة (دعويّة) مِن أهم قواعد (فقه الواقع) مُنبثِقَةً من (واقع الفقه) الذي تعيشهُ الأمَّةُ بدُعاتها وعُلَمائها:

إنَّها قاعدةُ (الجِدِّ) في مُعامَلَةِ (الواقع)، دونَ الرُّكونِ إلى (الحماسةِ) و(التَهوُّرِ) المُودي إلى الانقطاع في مُنْتَصفِ الطريقِ، دونَ وُصولٍ إلى الغايةِ المرجوَّة؛ إذْ «إنَّ أشدَّ الناس حماسَةً واندفاعاً وتهوُّراً، قد يكونون هم أشدَّ الناس جَزَعاً وانهياراً وهزيمَة عندما يَجِدُّ الجدُّ، وتَقَعُ الواقعةُ... بَل إنَّ هذه قد تكونُ القاعدةَ! ذلك أَن الاندفاعَ والتهوُّرَ والحماسةَ الفائقةَ غالباً ما تكونُ مُنْبَعِثةً عن عَدَمِ التقديرِ لحقيقةِ التكاليفِ... لا عن شجاعةٍ واحتمالٍ، وإصرار. كما أنّها قد تكونُ مُنْبَعِثةً عن قِلّةِ الاحتمال -قِلّةِ احتمالِ الضِّيق والأذى والهزيمةِ-؛ فتدفعُهم قِلّةُ الاحتمالِ إلى طَلَبِ

(١) «الظلال» (١/ ٢٦٦)!!

الحَرَكَةِ والدَّفْعِ والانتصارِ بأيِّ شَكْلٍ، دون تقديرٍ لتكاليف الحَرَكَةِ والدفعِ والانتصارِ... حتَّى إذا وُوجهوا بهذه التكاليف كانت أثْقلَ مِمّا قَدَّروا، وأشقَّ ممّا تَصوَّرُوا، فكانوا أوّلَ الصفِّ جَزَعاً ونُكولاً وانهياراً... على حينِ يَثْبُتُ أولئك الَّذين كانوا يُمْسِكون أَنْفُسَهم، ويحتملون الضيق والأذى بعض الوقت؛ ويعدُّون للأمر عُدَّتَه، [طالبينَ العونَ من ربِّهم- سبحانه-]؛ يعرفونْ حقيقةَ تكاليف الحركةِ، ومدى احتمال النفوس لهذه التكاليفِ، فيصبرون ويتمهّلون، ويعدُّون للأمر عُدَّتَه... والمتهوّرون المندفعون المتحمِّسون يحسبونهم -إذ ذاك- ضِعَافاً، ولا يُعجبهم تمهُّلُهم ووزنُهم للأمور! وفي المعركة يتبيّن أيُّ الفريقين أكثرُ احتمالاً؛ وأي الفريقين أبعدُ نظراً!»[١].

وعليه؛ فإنَّ أُولى- وأَوْلى- مراحل العَمَلِ الإسلاميِّ الجادِّ، بوضوحهِ ونقائهِ، بمنهجهِ وصفائه، ينبغي أن تكونَ «مرحلةَ بناءٍ وتربيةٍ، وتوجيهٍ وتصفيةٍ؛ بناءٍ لعقلهِ وفكره، وتربيةٍ لنفسهِ وخُلُقهِ، وتوجيهٍ لاندفاعاتِهِ وطُموحاتهِ وآمالِه، وتصفيةٍ لأفكارهِ ومعتقداتهِ.

(١) «الظلال» (٢/ ٧١٢)!!

ومرحلةُ البناءِ -هذه- تكونُ هادئةً هادفةً، تتميَّزُ بالسَّعْي نحو التَّمْكين، وتكونُ أبعدَ ما يُمكن عن الحماسةِ والعاطفةِ، لأنَّ ما في نفسِ الشَّباب مِن حماسةٍ وعاطفةٍ كافيتانِ لعَمَلِه وحَرَكتِهِ!

وليس مِن الحكمةِ في شيءٍ أنْ نزيدَ حماسةَ الشباب حماسةً، وعاطفتَه عاطفةً، فيحصُلَ مِن الثوراتِ ما لا تُحْمَدُ عُقباه، ولا أدلَّ على ذلك مِن هذا الواقع، ومِن حكمةِ رسولِ الله ﷺ مع أصحابِهِ في مَكَّةَ[1].

والواجبُ ضَبْطُ هذا الحماسِ وتوجيهُ هذه العاطفة، لا إثارتُهما قبلَ التربيةِ والعِلْم، والتوجيه والحِلْم»[2]

وثمّةَ أمرٌ لا بُدّ مِن بيانِهِ وإيضاحِهِ، وهو أنَّ كثيراً مِن (المُستعجلين) تدفعُهم (حماسَتُهم)، وتَحْدوهم (عواطِفُهم) إلى سُلوك سُبُلٍ تُناقِضُ خَطَّ سيرِ الدعوةِ الحقيقيَّ، فتراهم يلجؤون إلى (السِّرية) و(التكتُّم) و(التَّمَحْوُر) و(الانْغِلاق)!

---

(١) إذ كانوا مُسْتَضْعَفين، لا حولَ لهم ولا قُوّة.

(٢) «السَّبيل. . .» (ص٤٧).

وهذا -كُلُّه- يُناقِضُ حقيقةَ (الدعوةِ) بوضوحِها، وظُهورها وسَعَتِها و (شُمولها):

«فانْطِلاَقاً من الالتزام بمسؤوليةِ الدعوةِ المُتَعلِّقةِ بجُمهورِ المُسلمين، وضرورة إيصالِ الدعوةِ إلى كُلِّ مكانٍ، ومِنْ خِلاَلِ إدراكِ طبيعةِ المعركةِ التي تدورُ الآنَ بين دُعاةِ الإسلام وأعدائهِ، والّتي تتركّز حولَ مفاهيمِ عامّةِ المُسلمين وعواطِفِهم وأخلاقِهم:

لا بُدَّ من تَوْسيعِ دائرةِ العَمَلِ إلى أبعدِ حَدٍّ مُمْكنٍ، والعَمَلِ على تَصْحيحِ المفاهيمَ الإسلاميّةِ عند عامّةِ المُسْلِمين، وربْطِ عواطِفِ هؤلاء المُسْلمين وأخلاقِهم بهذه المفاهيم[1]، ومُحاولةِ بناءِ الشخصيةِ الإسلاميّةِ المُتكامِلةِ عندَهم، تهيئةً لهم للاتِّصال التامِّ بالدعوةِ والالْتِحَامِ بها.

ومن أجلِ إقامَة صِلَةٍ حيّةٍ بين قاعدةِ الدَّعوةِ وجُمهورِها:

لا بُدَّ من إزالةِ الحواجزِ التي تَحُولُ دونَ وُصولِ هذه العَلاَقةِ لأقصى بُعْدٍ مُمْكنٍ في ظِلِّ الأوضاعِ القائمة، وعلى الأخصِّ تلك الحواجزُ التي أقامَتْها أيدي الدُّعاةِ في فترةٍ ما،

---

(١) لا بالغوغائيةِ القاتلةِ لِحُبِّ العَمَلِ بِجِدٍّ!

نتيجةَ عَدَمِ التبيُّن الصحيحِ لطبيعةِ المرحلةِ، والخَطَأِ في تقديرِ مُتَطَلَّباتها.

فالسِّرِّيَّةُ التي يُرادُ لَها أن تُغَطي ساحةَ الدعوةِ، تُشَكِّلُ حاجزاً يُعيقُ حُرِّيَّةَ الدعوةِ ويُحَجِّم نشاطها، في الوقتِ الذي لا يُوْجَدُ ما يدعو إلى مثل هذا التخوُّف.

كما أنّ هذه السِّرِّيَّةَ قد أقامت بين الدعوة وبين عامّةِ الناس حاجَزاً من التخوُّفِ يَحُولُ دون الاتِّصالِ بها والتعامُلِ مَعَها، مِثْلَما أسهمتْ سِرِّيَّةُ العَمَلِ في إفرازِ سلبيّاتٍ كان لها أخْطَرُ الأثَرِ على مسارِ العَمَلِ وعلى مُسْتَقْبَلِهِ، كازدواجِ الولاءِ بين القائدِ العَلَنيِّ والقائد السِّرِّي (!)، وتَسَلُّلِ بعض الانتهازيِّين تحت ستار السِّرِّيةِ، وسرقةِ ولاءِ الأجهزةِ الحسّاسةِ، ثم تسخيرُها لِضَربِ الجماعةِ بعد ذلك!

كما اسْتَطاعَ (البعضُ) استغلالَ هذه السِّرِّيَّةِ لتشويهِ صُورةِ العَمَلِ، واتِّهام الدُّعاةِ بشتّى التُّهم والأكاذيب، الّتي كان بعضُها يُتَّخَذُ ذَريعةً لتصفيةِ العَملِ، بينَما جُمهورُ المسلمين غافلٌ عن حقيقةِ المعركةِ التي تَجْري تحتَ سَمْعهِ وبصرِهِ، وربما بمُشاركتِهِ!

كما كانت هذه السِّرِّيَّةُ- في كثيرٍ من الأحيانِ- سبباً في زَرْعِ الشُّكوكِ والظُّنونِ بين الدُّعاةِ أنفُسِهم، باسْمِ الحَفَاظِ علىَ هذه السِّرِّيَةِ!

ولا بُدَّ من تَرْشيدِ إحساسِ الداعيةِ بتميُّزه عن العامّةِ، والذي يُفْتَرَضُ أن يكونَ عاملاً من عوامِلِ زيادةِ صَبْرِ الداعيةِ وحِلْمِهِ وحكمتِهِ في التعامُل مع غيره من العامّةِ، إلا أنَّه انْقَلَبَ -في كثيرٍ من الحالاتِ- حتى أَصْبَحَ يُوَلِّدُ الكِبْرَ والاستعلاءَ، وربّما الكراهيةَ والحِقْدَ، الذي تُوَظَّفُ لتغذيتِهِ بعضُ النُّصوصِ- التي تُؤْخَذُ على غيْرِ وَجْهِهَا-، والمفاهيمُ المغلوطةُ، لِيأْخُذَ صفةَ التقوى والوَرَعِ الشديدَيْنِ! وليسَ في حقيقتِهِ إلاّ صورةٌ للعَجْزِ والجهلِ!!

وإنّ الشِّدَّة في مخاطبةِ الناس ومُعامَلَتِهم أو ازْدِرائِهم، لا تُوْجَدُ إلاّ حينَ يفقدُ الداعيةُ الرؤيةَ السليمة لحقيقةِ عَلاقتِه بالناسِ، وطبيعةِ المُهِمّةِ المُلْقَاةِ على عاتقِهِ، وعندما يعجزُ عن التعامُلِ الإيجابيِّ وإقامةِ علاقةٍ طَيِّبَةٍ مَعَ الناس»[1].

---

(١) «في منهجية الدعوة» (٦٠-٦١) لأحمد سلام.

وفي كتابي «الدعوة إلى الله . .» (٦٦-٧٠) فَصْلٌ بعنوان: «قيود الحزبيّة»؛ تكلّمت فيه عن «السّرّية» وشيءٍ من سلبيّاتها.

ثالثاً: السَّبيل:

يُؤْخَذُ السَّبيلُ مِن الثَّوابِتِ القرآنية[1] -أيضاً-، لا مِن (تنظيرات) المُفكِّرين، ولا مِن أفكار (المُنظِّرين):

قال الله -سبحانه-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

وقال -عزّ شأنُه-: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾.

وقال -تقدَّست أسماؤه-: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾.

وقال -جلَّتْ قدرتُه-: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

وقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

---

(١) انظر ما سبق (ص٣٢ و٨٣).

وقال: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾.

وقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾.

وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾.

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾.

وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

وها هُنا حديثانِ نبويّانِ يُشكّلان- مع هذه الآياتِ العظيمةِ- نُقطةَ التقاءٍ، ووَضْعاً للنّقاط على الحروف -كما يقولون-، وصورةً منهجيةً واضحةً لنُواةِ التَّغْيير:

الأول: قوله ﷺ: «لا تُهْزَمُ اثْنا عشر أَلْفاً مِن قلّةٍ»[1].

الثاني: «إذا تبايَعْتُم بالعينةِ، ورَضيتُم بالزَّرْعِ، وأخذْتُم أذنابَ البَقَرِ، وتركتم الجهاد في سبيلِ الله، سَلَّط الله عليكم

---

(١) انظر تخريجه مُفصّلاً في تعليقي على «جُزء لوين» (رقم: ٩)- يسّر الله تمامه-.

ذُلاًّ، لا ينزعُهُ عنكم حتّى ترجِعوا إلى دينكم»[1].

قلتُ: فَلْنَجْمَعْ هذه الأحاديثَ مع تلك الآياتِ في صعيدٍ واحدٍ، لا كتابةً، أو قراءةً، وإنّما (علماً) و(عملاً)، دعوةً و (تطبيقاً)، (فِقْهاً واقعيّاً) نحياه في ظلالِ كتاب ربِّنا -سبحانه-، وسُنَّة نبيِّنا ﷺ، مِن غيرِ انحرافٍ، أو استعجالٍ، أو تَعَدٍّ!

رابعاً: الثَّمرة:

إذا عَرَفْنا (قاعدةَ الدعوةِ إلى الله) معرفةً حقّةً، قائمةً على درايةِ الشريعةِ، وفقه الأحكام التطبيقيّة، متجنِّبين بأفعالنا، ودعوتنا (العجلة والاستعجال)، سائرين بتيقُّظٍ وأناةٍ على (السبيل)- بوضوحهِ وظهارتِهِ، وجلائهِ ونَصاعتهِ-: كان ذلك كلُّه مِفْتاحَ جَنْيِ (الثمرةِ) اليانعةِ، بكُلِّ محاسنِها، وبجميعِ نتائجها.

فإذا انْقَطَعَتْ -بعد هذا كلِّه- دونَنا السُّبُلُ، ولم نَصِل إلى نهاية الطريقِ، ولم (نَرَ) بأعيُنِنا (الثمرة) دانيةً قطافُها، فلا يجعلُنا هذا نَسْتيئسُ أو تُبْسَلُ نفوسُنا، بل يجبُ أنْ نَعْلَمَ

---

(١) انظر تخريجه في رسالتي «الأربعون حديثاً في الدعوة والدعاة» (رقم: ٢).

-بيقينٍ- أنّ ذلك (الإبطاءَ) في النَّصر، إنَّما هو لِحِكَمٍ أرادها الله -سبحانه-، هي فوق عقولِنا، وفوق تصوُّراتنا.

قال ربُّنا- سبحانه-: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾، وقال- عزّ شأنُه-: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾، وقال- تبارك اسمه-: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

إنَّ «النَّصْرَ قد يُبطىء على الّذين ظُلِموا وأُخْرِجُوا من دِيارِهِمْ بغيرِ حَقٍّ إلاّ أنْ يقولُوا: ربُّنا الله، فيكونُ هذا الإبطاءُ لحكمةٍ يُريدُها الله.

وقد يُبطىء النصرُ لأنّ بُنيةَ الأمةِ المؤمنةِ لم تَنْضُج بَعْدُ نُضْجَها، ولم يَتِمَّ بَعْدُ تمامُها، ولم تُحْشَد بعد طاقاتُها، ولم تتحفَز كلُّ خَلِيّة وتتجمّع لِتَعْرِفَ أقصى المذْخورِ فيها من قوىً واستعدَاداتٍ، فلو نالتِ النصرَ -حينئذٍ- لَفَقَدَتْهُ وَشيكاً؛ لِعَدَمِ قُدرتِها على حمايتِهِ طويلاً!

وقد يُبطىء النصرُ حتى تَبْذُلَ الأمةُ المؤمنةُ آخرَ ما في طَوْقِها من قُوّة، وآخرَ ما تملكُه من رصيدٍ، فلا تَسْتبقي عزيزاً ولا غالياً لا تبذلُهُ هيِّناً رخيصاً في سبيلِ الله.

وقد يُبطىء النصرُ حتى تُجرِّبَ الأمةُ المؤمنةُ آخرَ قواها، فتدركَ أنّ هذه القوى- وحدَها بدونِ سَنَدٍ من الله -لاَ تَكْفُلُ النصرَ.

إنّما يتنزّل النصرُ من عند الله عندما تبذُلُ الأمَّةُ آخرَ ما في طَوْقِها، ثم تَكِلُ الأمرَ بعدَها إلى الله.

وقد يُبطىء النصرُ لِتَزيدَ الأمَّةُ المؤمنةُ صِلَتَها بالله، وهي تُعاني وتتألّمُ وتبذلُ؛ ولا تجد لها سَنَداً إلاّ الله، ولا مُتَوَجَّهاً إلاّ إليهِ- وحدَه- في الضَّراءِ.

وهذه الصِّلَةُ هي الضمانةُ الأولى لاستقامتِها على النَّهجِ بعد النصرِ عندما يتأذّن به الله، فلا تطغى ولا تنحرفُ عن الحَقِّ والعدلِ والخير الذي نَصَرها به الله.

وقد يُبطىء النصرُ لأنَّ الأمةَ المؤمنةَ لم تتجرّد بَعْدُ في كفاحِها وبَذْلِها وتضحياتها لله ولدعوتِهِ، فهي تقاتلُ لِمَغْنَمٍ تُحَقِّقُهُ، أو تقاتلُ حَمِيَّةً لِذاتِها، أو تقاتلُ شجاعةً أمامَ أعدائها!

والله يريدُ أن يكونَ الجهادُ له وحدَه، وفي سبيلهِ، بريئاً من المشاعِرِ الأخرى التي تلابسُه.

وقد سُئل رسولُ الله ﷺ: الرجلُ يقاتلُ حَمِيَّةً، والرجلُ يُقاتلُ شجاعَةً، الرجلُ يقاتلُ لِيُرى؛ فأيُّها في سبيلِ اللهِ؟ فقال: «مَنْ قاتَلَ لِتكُونَ كلمةُ اللهِ هيَ العُليا فهو في سَبيلِ اللهِ»[1].

كما قد يُبطىء النصرُ لأنّ في الشَّرِّ الذي تكافِحُه الأمةُ المؤمنةُ بقيةً من خيرٍ، يريدُ اللهُ أن يُجَرِّدَ الشرَّ منها لِيَتَمَحَّضَ خالِصاً، ويذهبَ وحدَه هالكاً، لا تتلبّس به ذَرَّةٌ من خيرٍ تذهبُ في الغِمَارِ!

وقد يُبطىء النصرُ؛ لأنَّ الباطلَ الذي تحاربُهُ الأمةُ المؤمنةُ لم ينكشِفْ زيفُه للناس تماماً، فَلَو غَلَبَه المؤمنون حينئذٍ فقد يَجِدُ له أنصاراً من المَخْدوعين فيه لم يَقْتَنعوا بَعْدُ بفسادِهِ وضرورةِ زوالِهِ، فتظلُّ له جذورٌ في نُفوسِ الأبرياءِ الذين لم تنكشِفْ لهم الحقيقةُ، فَيَشاءُ اللهُ أن يُبقي الباطلَ حتى يتكشّف عارياً للناس، ويذهبَ غيرَ مأسوفٍ عليه من ذي بقيةٍ!

---

(١) رواه البخاري (٢٨١٠) ومسلم (١٩٠٤) عن أبي موسى الأشعري.

وقد يُبطىء النصرُ لأنّ البيئةَ لا تصلُحُ -بَعْدُ- لاستقبالِ الحَقِّ والخيرِ والعدلِ الذي تُمَثِّله الأُمَّةُ المؤمنةُ، فلو انتصرت حينئذٍ لَلَقِيت مُعارضةً من البيئةِ لا يستقرُّ لها معها قرارٌ، فيظلُّ الصراعُ قائماً حتى تتهَيَّأَ النفوسُ مِنْ حولِهِ لاستقبالِ الحَقِّ الظافِرِ، ولاستبقائِهِ!

مِنْ أجلِ هذا كُلِّهِ-، ومِن أجلِ غيرِهِ مِمّا يعلمُهُ اللهُ- قد يُبطىء النصرُ، فتتضاعفُ التضحياتُ، وتتضاعفُ الآلامُ، مَعَ دفاعِ اللهِ عن الذين آمنوا وتحقيقِ النصرِ لهم في النهاية.

وللنَّصْرِ تكاليفُهُ واعباؤُه حين يتأذَنُ اللهُ به بعد استيفاءِ أسبابه وأداءِ ثَمَنِهِ، وتهيُّؤ الجَوِّ حولَه لاستقباله واستبقائه:

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

فوعدُ الله المُؤكَّدُ الوثيقُ المتحقّقُ الذي لا يتخلّف هو أن ينصُرَ من ينصُرُهُ. فَمَنْ هُم هؤلاء الّذين يَنْصُرونَ الله، فيستحقُّوا نَصْرَ الله القويِّ العزيز الذي لا يُهْزَمُ من يتولاّهُ؟

إنّهم هؤلاء:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.. فحقّقنا لهم النصرَ، وثبّتنا لهم الأمرَ.. ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ فعبدُوا اللهَ، وَوَثّقُوا صِلتَهم به، واتّجهُوا إليه طائعينَ خاضعين مُستسلمين.. ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ فأدّوا حقّ المالِ، وانتصروا على شُحِّ النفسِ، وتطهّروا من الحِرْصِ، وغلبوا وسوسةَ الشيطانِ، وسدُّوا خَلّةَ الجماعةِ، وكفَلُوا الضِّعافَ فيها والمحاويجَ، وحقّقوا لها صِفةَ الجسمِ الحيِّ -كما قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ المُؤْمنين في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم كمَثَلِ الجسدِ إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعى له سائرُ الجَسَدِ بالسَّهرِ والحُمّى»[1]، ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.. فدَعَوا إلى الخيرِ والصَّلاحِ، وَدَفَعوا إليه الناسَ.. ﴿وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.. فقاوَمُوا الشرَّ والفساد، وحَقّقوا بهذا وذاك صفةَ الأمّةِ المسلمة التي لا تُبقي على مُنْكَرٍ وهي قادرةٌ على تغييره، ولا تقعدُ عن معروفٍ وهي قادرةٌ على تحقيقه..

هؤلاء هم الذين يَنْصرون اللهَ؛ إذ يَنْصُرونَ نَهْجَهُ الذي أراده للناسِ في الحياةِ، مُعْتَزّين باللهِ- وحدَه- دون سواهُ.

وهؤلاء هُمُ الّذين يَعِدُهُم اللهُ بالنَّصْرِ على وَجْهِ التحقيقِ واليقين.

---

(١) رواه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦) عن النعمان بن بشير.

فهو النَّصْرُ القائمُ على أسبابهِ ومقتضياتِهِ، المشروطُ بتكاليفهِ وأعبائه.. والأمرُ بعد ذلك للهِ، يُصرِّفُهُ كيف يشاءُ، فَيُبَدِّلُ الهزيمةَ نصراً، والنصرَ هزيمةً، عندما تختلُّ القوائمُ، أو تُهْمَلُ التكاليفُ: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾..

إنّه النَّصْرُ الذي يُؤَدِّي إلى تحقيقِ المنهجِ الإلٰهِيِّ في الحياةِ.. من انتصارِ الحقِّ والعدلِ والحُرِّيَّةِ المُتَّجِهَةِ إلى الخيرِ والصلاحِ، المنظورِ فيه إلى هذه الغايةِ التي يتوارى في ظِلِّها الأشخاصُ والذوات، والمطامعُ والشَّهوات..

وهو نَصرٌ لَه سَبَبُهُ، وله ثمنُهُ، وله تكاليفُهُ، وله شروطُه، فلا يُعْطىٰ لأحدٍ جُزَافاً أو مُحاباةً، ولا يَبْقىٰ لأحدٍ لا يُحَقِّقُ غايَتَهُ ومُقتضاهُ..»[1].

أقولُ:

هٰذه هي أَماراتُ تأخُّرِ (القِطاف)، وعلاماتُ إبْطاءِ (الثِّمار)..

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾.

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾.

---

(١) «الظلال» (٤/٢٤٢٦-٢٤٢٨)!!

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ .

واللهُ ربُّنا- سبحانهُ- قَد بَيَّن لَنَا (وظيفةً) نقومُ بها، و(منهجاً) نتمسَّك به، وندعو إليه، غيرَ ناظِرين إلى (ثَمرةٍ) ننتظرُها، فهذا هو (شَأْنُهُ) -سبحانه-، فقال: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ .

ويقولُ -عزّ شأنُهُ-: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ .

ويقولُ -جلّت قُدرته-: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ .

وَمَا أَجْمَلَ ما قيلَ -في مثلِ ذلك-:

بكىٰ صاحِبي لَمَّا رأىٰ الدَّرْبَ دُونَنا
وأَيْقَـنَ أنّـا لاحِقُـونَ بقيصـرا

فقلتُ له: لا تبكِ عَيْنُك إنَّما
نُحـاوِلُ مُلْكـاً أو نموتَ فَنُعْـذَرا

وأخيراً:

لو تأمَّلْنا (واقِعَنا) الذي نعيشُه؛ مِن حيثُ ضَعْفُ المسلمين، وتشتُّتُ كلمتهم، وتفرُّقُ صُفوفِهم، وتمزُّقُ بلادِهم وديارهم، وسيطرةُ الشهوات على قلوبهم!

ثم (قابَلْنا) ذلك بـ (واقع) الكَفَرةِ والمُشركين: قُوَّتهم (المادّيّة)، وصَواريخهم، وبَوارِجهم، وأسلحتهم، وطائراتهم، وأقمارِهم الصِّناعيّة، وأساليبهم (التجسُّسِيَّة)، و(صنائعهم) (الدّبلوماسيّة) (!) وطرائقهم (الاستعماريّة) وغير ذلك مِن عُدَّةٍ وعَدَدٍ وعُدَدٍ!!

فَهَل مِن سَبيلٍ إلى مُواجهتهم بمثلِ ما هُم عليه؟

وهل مِن طريقٍ نَرُدُّ بها سَيْلَ (جَبَروتِهِم) العارمَ؟

وبخاصّةٍ بعد إحكام طَوْق «النظام العالمي الجديد» على أعناقِ (الأمَم) ورقاب الشُّعوب!!

إنَّ الجوابَ (الصحيحَ) (الوحيد) على ذلك، بمُكاشفةِ (النُّفوسِ) وصراحةِ (العُقول): هو أنّنا لا يُمكن لنا -اليَوْمَ أو بعدَ ألفِ يَوْم- ونحنُ على مثلِ ما نحنُ فيه -أن نُواجه هؤلاء الكَفَرَةَ بمثلِ ما هم فيه من تفوُّقٍ (ظاهر) في المادِّيّات

والتكنولوجيّات، والأسلحة الفتّاكات!!

إذاً: ما العَمَلُ؟

يُحَدِّثُنا التاريخُ قصَّة وقوع لويس التاسع في الأسر، أثناء الحروب الصليبيّةِ الأولى، حيث سُجن في المنصورة [في مِصْرَ]- أيّامَ الملك الصالح نَجْم الدِّين أيُّوب-، إذ جَعَلَ يُفكِّر في سجنهِ بالسَّبيلِ الذي يستطيعُ مِن خلالِهِ كَسْرَ شوكةِ المسلمين القويّة (حينذاك)، فلمّا فُكَّ أسرُهُ، وعاد إلى قومِهِ، قال: «إنَّ التغلُّبَ على المسلمين بالسِّلاح وحده غيرُ مُمْكنٍ، وإنَّ على أوروبّا إذا أرادت التغلُّب على المسلمين أنْ تُحاربَهم مِن داخلِ نفوسِهِم، وأنْ تقتلعَ العقيدةَ الإسلاميّة مِن قلوبهم»[١].

والتاريخُ -اليوم- يُعيد نفسَه -كما يقولون-!!

ولكنْ بصورةٍ عكسيّة!

فلا يُمكن للأمّةِ -اليوم- أن تُضادَّ قوى الكفرِ المجتمعةَ، ولا أن تُواجهَها إلاّ بالقُوّةِ الّتي لا تُقْهَر، والسِّلاح الذي لا يُجابَه، و(الإمكانيات) التي لا تستطيعُ دُولُ الغربِ أو

(١) «في الغزو الفكري» (ص٨١) نذير حمران.

(الشرق) -مجتمَعةً- الحُصولَ عليها:

إنَّها العقيدةُ الصحيحةُ، والمنهجُ القويمُ في فَهْمِ الدين، والدَّعوةُ الجادةُ لهذا الأصلِ الأصيلِ، تحت مَنَار العِلْمِ: تَعَلُّماً وتعليماً[1]، والعَمَلِ: دعوةً وجهاداً، إذ «العلمُ هو سبيلُ معرفةِ أيّةِ حقيقةٍ، وهو كذلك سبيلُ معرفةِ حقائقِ الإسلامِ:

فالعقيدةُ الصحيحةُ الراسخةُ أساسُها العلمُ، قال الله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾.

وتنظيمُ أخلاقِ الفردِ والمُجتمعِ غيرُ مُمكنٍ إلاّ بالعلم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾.

---

(١) وهذا هو ما يدعو إليه (عُلماؤنا) منذ عشرات السِّنين.
وقد تنبَّه لهذا -بعد لأيٍ- عددٌ من الدُّعاة الإسلاميِّين الذين عايَشُوا (فقه الواقع) بصورِهِ كلِّها وأشكالِها جميعها!
قال صاحبُ كتاب «واقعنا المعاصر» (ص٤٤٢) بعد كلام سَابِغ: «إنّني أشعرُ بحقٍّ -بعد تدبُّر هذا كلِّهِ- أنّنا اليوم في مقام التعليم، قبلَ التصدّي لإصدار الأحكام على الناس، وإنّ هذا التعليم لإزالة الغُربة الثانية التي تُحيط بالإسلام اليوم: يحتاجُ مِن الوقت والجهد شيئاً غير قليلٍ، ولكنّه في النهاية سيحسمُ القضيّة حسماً كاملاً»!!

وكُلُّ مفهومٍ أو عمل لا يتّفق مع العلمِ ولا يستندُ إليه، فلا قيمةَ له ولاً اعتبارَ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

وفقدانُ العِلْمِ أو اختلالُهُ، أسرعُ طُرُقِ الضَّلالِ والانحِرَافِ: «... حَتَّى إذا لَمْ يُبْقِ عالماً، اتَّخَذَ الناسُ رُؤُوساً جُهَّالاً، فَسُئلوا: فَأَفْتَوا بغيرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا»[1].

وكذلك تنْقُصُ قوّةُ الصبر -أو تزولُ- بنقص العلم -أو ذهابه-: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾.

وكذلك تهتزُّ آصارُ الجماعة، وتَشيعُ فيها البَغْضاءُ ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾.

وإذا كان للعلم هذه المكانةُ وهذا الأثَرُ في بناءِ المجتمع، وضَبْطِ أخلاقه، وصيانةِ علاقاتِه، ونحنُ أُمَّةٌ تُعِدُّ نفسَها لخوضِ معركةٍ حضاريةٍ قاسية- من أجلِ استعادةِ حيويّتها، وإعادةِ دَوْرِها-: فَدوْرُ الداعية في هذه العمليّةِ ليس هَيّناً أو بسيطاً -بحالٍ-، إنَّه أكثرُ من مُفْتٍ، أو مُربٍّ، أو مُصْلحٍ، أو مُعَلِّمٍ، أو دليلٍ، أو قائدٍ.

---

(١) رواه البخاري (١٠٠) ومسلم (٢٦٧٣) عن عبد الله بن عَمْرٍو.

وإنَّ ما يتوجّبُ على الدُّعاةِ من أجلِ الوُصولِ إلى مستوى العَمَلِ الجَدِّيِّ، استعادةُ الرؤيةِ الحضاريةِ الإسلاميةِ الصافية، وبناءُ الشخصيةِ الإسلامية المتكاملةِ، وحَلُّ إشكالاتِ وحدَةِ العَمَلِ الإسلاميِّ وتناسُقهِ، فإنَّ هذا الداعيةَ ما لم يكُن عالماً متمكّناً، أو مُتَعَلِّماً على بصيرةٍ، بحيثُ يمتلك أهليّةَ النَّظَرِ والتقييم الذاتيِّ، وتأسيسِ القَناعاتِ الحُرَّةِ المُتَّزِنَةِ، فلا بُدَّ أَنْ تجرِفَه زحمةُ الأحداثِ، ويُؤَثِّرَ عليه زَخَمُ الحَرَكَةِ، وإذا به ينقادُ لارتباطاته الشخصيةِ وعواطفِهِ داخلَ الصفِّ وأثناءَ حركتِهِ، فَيُصْبحُ بينَ أن يتقلّبَ مع كُلِّ اجتهادٍ أو قول، أو ينزلقَ إلى هُوّةَ التعصُّبِ والتقليدِ الأعمى، فهو في بُنْيَتِهِ -تِلكَ- إمّعَةٌ لا يُجيدُ إلاَّ الخضوعَ والانصياعَ، وهو مُرشَّحٌ -كذلك- للإسهام في إقامةِ مَحَاوِرِ مواجهةٍ داخلَ صُفوفِ الحَرَكةِ، تعصُّباً لهَذا الزعيمِ أو ذاك! وإذا به يَعْمَلُ في نَسفِ بُنيانِ الأُلْفَةِ والجماعةِ، ويضربُ بسَيْفِ الفُرقةِ والتفتيتِ.

وهذه الصفاتُ تُؤَهّلُ للانحرافِ والسُّقوط، أكثرَ ممّا تُؤَهِّلُ للقيادةِ الراشدةِ، قال الله -تعالى-: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ

﴿بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾»[1].

وآيات كتابِ اللهِ في ذلك تَصُكُّ الآذان، وتقرعُ الأسماع:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾.

﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

فهذا هو «واقعُ الفقه» الحاضر، بصورتِه المعاصرةِ، وبإشكاليّاتِهِ المُتكاثرة، نفهمُ بهِ -ومنه- «فقهَ الواقع» بحقيقتهِ الناصعة، وملامحهِ البيّنة الواضحةِ.

«وهذا الأمر لا يكونُ بالثورات والانقلابات، بل يكونُ بتعليم المجتمعِ الخيرَ، والدعوةِ إلى الخير، وَبِنُصْحِ حُكَّام المُسلمين، ونُصح جميع المسلمين»[2].

---

(١) «في منهجيّة الدعوة الإسلامية المُعاصرة» (ص٣٠-٣١).

(٢) «قُرَّة العين. . .» (ص٣٨) للشيخ مقبل بن هادي الوادعي.

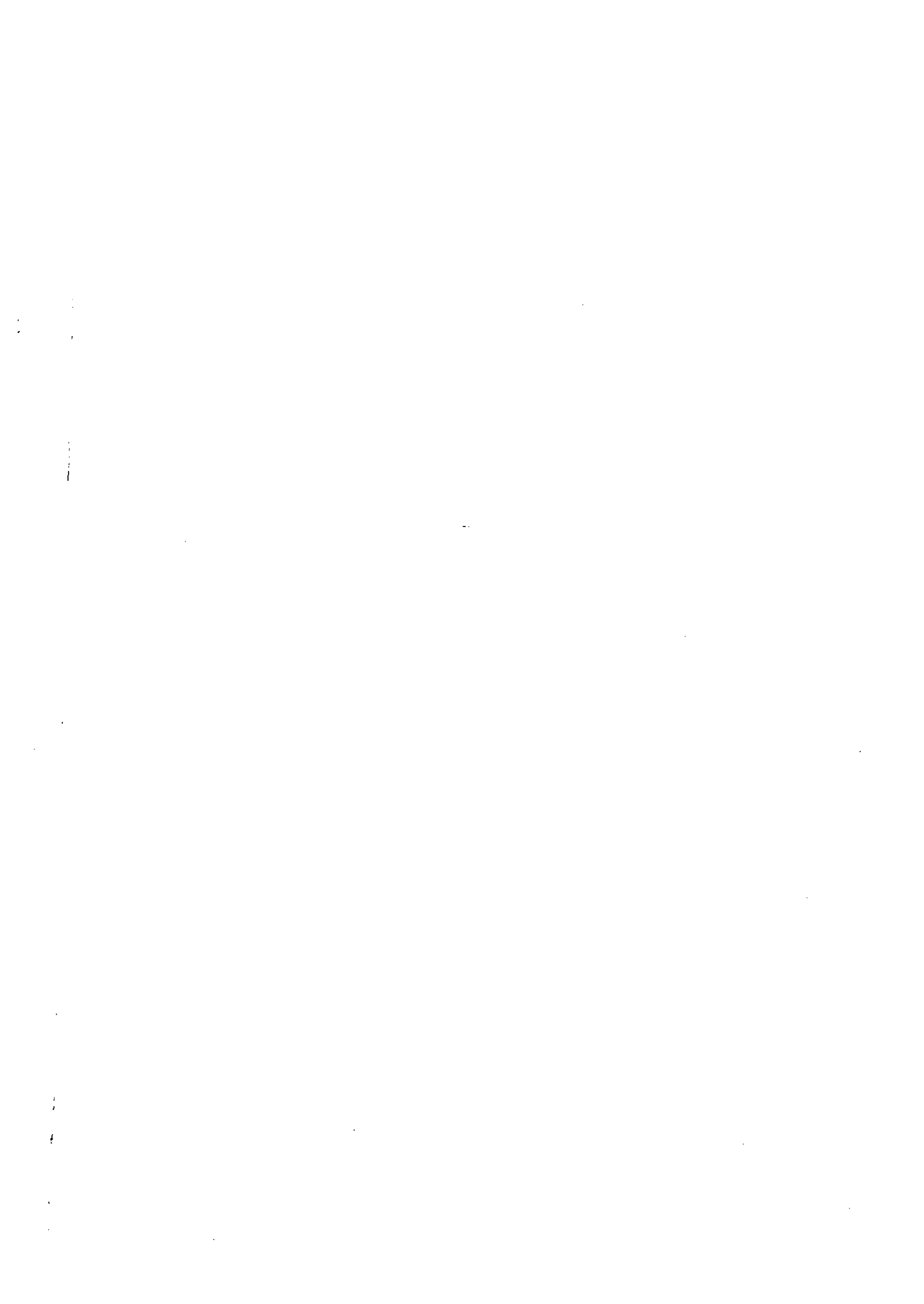
إذ «لا يكونُ الوصولُ إلى إقامة النظام الإسلاميِّ وتحكيم الشريعة الإسلاميّة عن طريق انقلاب في الحُكْم يجيء من أعلى، ولكنْ عن طريق تغيُّر في تَصوُّرات المجتمع كلِّهِ -أو مجموعاتٍ كافيةٍ لتوجيهِ المجتمع كُلِّهِ- وفي قِيَمِهِ وأخلاقِهِ والتزامِهِ بالإسلام، يجعلُ تحكيمَ نظامِهِ وشريعتِهِ فريضةً لا بُدّ منها في حِسِّهِم»[1].

﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾.

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾.

□□□□□

(١) «لماذا أعدموني ؟» (ص٤٣)!!



الخاتمةُ

-نسألُ الله حُسْنها-

بعد حَمْد الله ذي الجلال؛ أُضيفُ شيئاً مهمّاً ذا صِلَةٍ أَساسيّةٍ بهذه الرسالةِ، فأقولُ:

كثيراً ما نَسمَعُ مِن (الدُّعاة) أو (الشبابِ) مَن يَقولُ وَيُرَدِّدُ: العلمُ... حُسنُ الظَّنِّ... التأنّي... الأُخوَّة... الخُضوع للحَقّ... البُعد عَن التَّعصُّب... الولاء للمؤمنين... استماع النَّصيحة... قَبول الدَّليل...

... ولكنْ... وعند أوَّلِ امتحانٍ (فِعليٍّ عَمَليٍّ) تُعرَفُ به -حَقّاً- تِلكُمُ الأقوالُ، وتُقاسُ به -صدِقاً- هاتيكَ الدَّعاوى: تَرى انقلابَ المفاهيم... وتَغيُّرَ المَوازين:

فالعلمُ يَنقَلِبُ جَهلاً...

وحُسنُ الظَّنِّ يَنقَلِبُ تُهمَةً...

والتأَنيِّ يَنقَلبِ تهَوراً...

والأُخوَّةُ تَنقَلِبُ ضِدّاً...

والخُضوعُ للحَقِّ يَنقَلِبُ رَفضاً...

والبُعدُ عَن التَعصُّبِ يَنقَلِبُ غلْواءً...

والوَلاءُ للمُؤمنين يَنقَلِبُ عَداءً...

واستِماعُ النَّصيحةِ يَنقَلِبُ إباءً...

وقَبولُ الدَّليلِ يَنقَلِبُ تَقليداً...

...وكيف ذلك! وَقَد مَلأُوا الدُّنيا وشغَلوا النَّاسَ!!

...كيف ذلك! وهُم يَدَّعونَ الحِرصَ، والامتثال، واللِّينَ في الأقوالِ والأعمال!!

...سُبحانَ الله! كُلُّ ذلك يكون... مِن غَيرِ حُجَّةٍ تُذكَر... ومِن غَيرِ دليلٍ يُبيَّنُ أو يُشهَر...

والنَّاظِرُ في (واقع) المُسلمين اليَومَ -بل مُنذُ ألفِ يَومٍ- يَرى أنَّ (الكثيرين) منهم بَعيدونَ البُعدَ كُلَّهُ عَن ادِّعاءاتِهِم، ومُنحَرِفونَ الانحرافَ جَميعَهُ عَن مَزاعِمِهِم!

فَنرى شابَّاً -مثلاً- أو شباباً، يُناقِشهُم (طالبُ علم) في مسألةٍ (فِكريَّةٍ) أو (دعويَّةٍ)...فإذا وافقَ ذلكَ النِّقاشُ ما (لُقِّنوه)... وطابَقَ ما (عايَشوه)... وجاء مُلَبِّياً لِرَغَباتِ ما (أَلِفوه) واعتادوه: كان عندهم (مُناقِشُهم) الأخَ المُقَدَّمَ الخالِصَ صادِقَ الوُدِّ...

وإن خالَفَ قولُكَ مَضمونَ فكرِهم، أو نَواحيَ مِن رأيِهم... قَذَفوكَ بِزَبدٍ مِن القَول السُّوء... ورَمَوْكَ عَن قَوسٍ واحدَةٍ بِتُهَمٍ بها العُصبَةُ أولو القُوَّةِ تَنوء!! ثُمّ تَراهُم يتناقلونَها - مِن غيرِ ثَبتٍ- بكُلِّ هُدوء!!

...فلا حولَ ولا قوّة إلاّ بالله العظيم الجليل، وحَسْبي رَبِّي ونِعْمَ الوكيْل، وهو- سبحانه- بكل جميلٍ كفيل[1].

□□□□□

(١) الزرقاء: يوم الثلاثاء لثلاثة أيّام بقين من شهر الله المحرّم؛ سنة اثنتي عشرة وأربع مئة وألف للهجرة.

كتبه: أبو الحارث الأثري.

ثم راجعتهُ، وأعدتُ النظر فيه في مجالسَ من غرّة شهر رمضان المبارك؛ سنة عشرين بعد الأربعمئة وألف للهجرة.

والله وليُّ التوفيق.



الفهرس العام